كتب التجمع الإسلامي IANA

رسائل التجديد (١)

نظرات في منهج العمل الإسلامي

جعفر شيخ إدريس

رسائل التجديد (١)

نظرات

في منهج العمل الإسلامي

جعفر شيخ إدريس

التجمع الإسلامي في أمريكا الشماليَّة

١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م

نظرات في منهج العمل الإسلامي

جعفر شيخ إدريس

Contemporary Islamic Movement: Reflections on Methodology

Jaafar Sheikh Idris

الناشر

التجمع الإسلامي في أمريكا الشماليّة

Islamic Assembly of North America (IANA)
PMB # 270, 3588 Plymouth Rd.
Ann Arbor, MI 48105
Tel: (734) 528-0006
Fax: (734) 528-0066
E-mail: IANA@IANAnet.org
URL: www.IANAnet.org

الطبعة الأولى

1st Edition

ISBN # 1-888782-04-8

Jacket Design: Omar El-Haddad, Design Works

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

تقديـــم

الشيخ جعفر شيخ إدريس

العلم والعقل والتجربة

مرت نحو من عشرين سنة على تلك المقالات التي نشـــرها الشـــيخ جعفر في نقد الجدل الماركسي، عندما كان ذلك الفكر يضرب أطنابـه في دوائر المثقفين العرب وغيرهم. واستمتع قراؤه حينها بتلك القدرة الفذة في نقد الفكر المادي، مما لم يكن مألوفاً في وسط المفكرين الإسلاميين. لقـد كان الشيخ مستوعباً لما يكتب عنه. وقادراً على استخراج الرد الإسـلامي على تلك الطروحات، بل كان مبدعاً ومنشئاً لطريقة جديدة في الرد علـى الماركسية. ومنذ تلك المحاضرة وإلى اليوم زاد الاهتمام بطروحات الشـيخ وملاحظاته، وتقويمه ونقده لمقالات الإسلاميين وغيرهم. ثم خرج له مقال نقدي لبعض أفكار الشهيد سيد قطب رحمـه الله في كتابـه: معـالم في الطريق. وكان ذلك البحث هو مشاركته في ندوة الحركات الإســلامية التي تبنّاها وطبعها مكتب التربية لدول الخليج العربي. وقد أثارت تلـك المحاضرة جدلاً في وقتها ومن بعد، لما تميزت به من الإنصـاف والجـرأة والصراحة، مع بقاء الاحترام والتقدير لما قدمه مؤلف "معالم في الطريـق".

ومرت السنوات والتقيت بالشيخ جعفر في أمريكا وبريطانيا عدة مرات، وكان الحديث يجوس مناطق واسعة من الفكر والثقافة والحركة. وكان يلفت الانتباه بسعة علمه وغزارة تجربته وتواضعه الجم. وبقدرته على الملاحظة والرؤية النافذة في نقد حذلقات الحركيين الإسلاميين، من وجهة نظر العالم بدينه المصلح لأمته، والأب الناصح المدرك للتحديات والأستاذ البصير الذي مر بهذه المواقف معلماً ومرشداً.

قضى الشيخ ردحاً من عمره موجهاً ومحاضراً ومحاوراً في جوانب عديدة من الثقافة الإسلامية المعاصرة، والذي كان أكثر جاذبية في طريقته أنه يعالج الأمور بسعة أفق لم يعتدها الصف الإسلامي، الذي تعود سياق القطعيات السياسية والعقائدية والفقهية. فهاجم الشيخ هذه العقلية الحاسمة لكل شيء بتهويمات خيالاتها، وإغراقها في غرورها. ثم إن النقد منه أولى بالقبول من غيره؛ ليس لمجرد المعرفة لما يتحدث عنه؛ ولكنه كان من صُنّاع اليقظة الإسلامية المعاصرة في بلدان كثيرة، وأمتحن وسُجن في سبيل عقيدته ودعوته. إذ هو من رواد الفكر الإسلامي المعاصر، وأحد زعامات الحركة الإسلامية في العالم العربي (راجع "مع الحركة الإسلامية في الدول العربية" لعبد الله بو عزة). وفي بلده كان من منشئي اليقظة الإسلامية المعاصرة، والتي كانت تجمعاً حركياً غير ذي صلة في بدايته بأي تجمع إسلامي خارج السودان. وذلك ما يؤكده الشيخ جعفر؛ ولكن الثقافة التي تثقفوا بها فيما بعد كانت كتب الإخوان. وأكد هذه المسألة غيره في عدد من الكتب.

وقد انضم إسلاميو السودان لاحقاً إلى التنظيم الدولي. غير أن النشأة المستقلة للحركة كانت نزاعة للبقاء، مما جعلهم ينفصلون عن الحركة مبكراً، ويبقى أولئك الذين كانت بداياتهم في مصر. ثم تتكرر الانفصالات ومحاولات الائتلاف المستمرة.

إن الحركة الناقدة للدعوة الإسلامية المعاصرة وللعلل التنظيمية، وللأفكار والاجتهادات الخاطئة كانت ولم تزل قليلة الوجود والأثر من داخل العمل الإسلامي. وكان الدكتور جعفر من القلائل الذين كانت هذه القضية حاضرة لديهم دائماً. وغالب الإسلاميين إما موافقون صامتون، أو متفرجون ناقدون. ولكنه من فريق الذين كانوا يعملون وينقدون، ويجهرون بالنصح والتصويب. وله في هذا موقف تأصيلي شرعي في التفريق ما بين طريقة اتخاذ القرار في المجتمع المسلم وبين اتخاذه في الأحزاب غير المسلمة.

ولكن لم يكن الإسلاميون يرحبون بالنقد في أوساطهم، لأسباب عديدة ليس هذا مكان الحديث عنها. ويبقى النقد والمراجعة والنصح من لوازم العمل الصحيح، وهو السبيل الوحيد لتطوير المفاهيم وإحقاق حقها وإزهاق باطلها، بقطع النظر عن قائلها. فمشروع استصلاح أمة يفوق قدرة فرد أو أفراد يهربون من العجز إلى السكوت عن أخطائهم، أو من يهربون من التفكير إلى تكرار المعتاد.

فسيد قطب رحمه الله لم يكن الإسلاميون يطيقون نقد فكره، وإن كان، فهمساً خافتاً، لأن جلال ما قام به من عمل ثم خاتمته المشرفة، قد

ألقت بالمهابة والجلال على كل قوله. فكان أن أخذ الإسلاميون بكلامه جملة، لأنهم لا يملكون أن يدعوه جملة، بسبب طريقة الإسلاميين الكليَّة المعاصرة في التعامل مع الأشخاص والأفكار. فهي طريقة لا تعرف إلا القبول الكامل أو الرد الكامل، والتي جافت منهجية السلف في الأخذ والرَّد من كل شخص عدا محمَّد رسول الله ﷺ. و هذا من الجوانب التي ينقدها الشيخ على الإسلاميين.

والشيخ من أوائل من نبه لما يراه انحرافاً في أفكار بعض الإسلاميين منذ عام ١٩٦٤م ولكن حماسة الشباب من الإسلاميين لم تكن تسمح بالتفكير فيما يتم. بل وكما شرح أحدهم بعد نحو ثلاثين سنة: لم نكن نفهم تلك الانحرافات التي كان جعفر إدريس يذكرها لنا، أو أن الشيخ لم يُفصِّل ما كان يتحدث عنه. وفي صفحات هذا الكتاب إشارات لبعض هذه الجوانب. ولربما كانت الرغبة في التماسك والأخوة هي التي تمنع من التفصيل والبيان. فلم ير النشر في السابق. وكان يأمل في الأوبة، ويعتبر الأمر داخلياً وطارئاً وربما يصلحه العلم والزمن.

ثقافة الشيخ جعفر

أشار أحد العلماء الذين عرفوا الشيخ جعفر منذ بداية أمره إلى المهاد الفكري الذي تميز به عن كثير ممن عاصروه، فالشيخ جعفر تلميذ مدرسة سنية صريحة. وهذا التعمق السني للشيخ زاد مع الحرص والجلد الطويل

على العلم والفقه في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وذلك ما تلحظه في علمه وفهمه، وقد زامل نخبة من علماء العصر كالشيخ ابن باز وتلقى شرح البخاري عنه، دون أنفة ولا كبر. وهكذا كان علماء الأمة الكبار يتعلمون كلما حانت لهم فرصة معرفة مهما كان العمر. قال أحدهم شهدت ابن الجوزي في عشر الثمانين مع ابنه يقرأ على شيخ رواية للقرآن لم يكن يحسنها.

ولد الشيخ في شرق السودان بمدينة بور سودان سنة ١٩٣٢م، ودرس الفلسفة في كلية جوردون التي أصبحت جامعة الخرطوم، ثم أكمل دراسة الدكتوراه في موضوع السببية، في الستينات ١٩٧٠م. ثم درّس في جامعة الخرطوم، ثم درّس في جامعة الرياض (الملك سعود حالياً)، ثم تحول إلى جامعة الإمام محمد بن سعود، ثم معهد الدراسات الإسلامية والعربية في واشنطن ثم أنشأ مع مجموعة من زملائه "الجامعة الأمريكية المفتوحة".

قراءته

قال ذات يوم مجيباً على سؤال: أي الكتب تقرأ؟: "أقرأ الكتب القديمة من التراث الإسلامي وأقرأ الكتب الغربية المعاصرة. تلك هي الكتب التي أجدها قوية مفيدة". وبلا شك أن الاستعداد -الذي وهبه الله إياه- ثم الجد في المعرفة والإطلاع على المعارف البشرية في أزهى عصورها، تعطي المتعامل معها خير ما فيها. وقد عُرِف عن الشيخ قراءته النهمة، وجده

العجيب في تتبع الكتب الفذة في العربية والإنجليزية. وهو ضليع في معرفة التيارات الفكرية والفلسفية الغربية. مع عمق في المعرفة القرآنية والمذهبية الإسلامية. حقق له ذلك توازناً في الأصالة والمعاصرة، فمعرفته بخير الماضي وصراع الحاضر، أعطى لقوله وملاحظاته وزناً وأثراً يجده من تتبعه في مختلف أبحاثه، الفلسفية والحركية والدعوية. وفي هذه المقالات مالا يستغني عنه من أراد دراسة الدَّعوة الإسلامية المعاصرة أو إصلاحها.

هذه الأعمال الكاملة

سيجد القارئ أن هذه السلسلة من كتب الشيخ لا ينتظمها موضوع واحد، فهي في الأصل مقالات كتبت في مناسبات شتى، لم يقصد الشيخ أن يجعلها في كتاب محدد، بل نصح بأن ننشرها في كتيبات صغيرة، حرصاً على الوحدة الموضوعية في كل منها. غير أن حاجة القارئ إلى جمع أكبر قدر منها في مكان واحد، وسهولة ذلك على الناشر أدتا بنا إلى محاولة جمع هذه المقالات في كتب. هذا الكتاب أولها، محاولين أن نجمع المؤتلف في مكان واحد. وقد واجهتنا مشكلة الجمع، فإن الشيخ لم يكن يهتم بعد نشر مقالاته بجمعها، فكان علينا أن نحرص على جمع ما تفرق في المجلات والكتب، أو ما جمع من مقالاته في المؤتمرات، وساعدنا في ذلك أولاده عبد الرحمن ويوسف الذين أبديا تعاوناً مشكوراً.

دعانا للحرص على نشر هذه السلسلة ما نعلم من فائدتها الفكرية والعلمية، وما تفتحه من الآفاق وما ترووده من قضايا نادرة الوجود عند غيره، وفي حيز صغير يعالج الشيخ قضايا تأخذ من غيره كتباً. وهذا الجزء خاصة يتميز بالنقد لآراء الإسلاميين المعاصرين، من قبل كاتب عاش معاناتهم ونصح لهم، دفعه لذلك الحرص على دينه، وتسديد دعاته وحب الخير لهم. فلم يأت هذا النقد من قبل خصم فنهمله، بل من داخل دائرة الدعوة، ومن رائد للإصلاح والنصح فيها، نحسبه كذلك والله حسيبه. إنها ورقات قليلة، ولكنها حقاً حصيلة علم وعقل وتجربة، فجزاه الله خير الجزاء على ما قدم، ونسأل الله أن ينفع بما كتب، وأن يبقى له ذلك صدقةً جاريةً، وعلماً نافعاً متقبلاً عند الله، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

محمد بن حامد الأحمري

رئيس مجلس أمناء التجمع الإسلامي في أمريكا الشماليَّة

السبت ٤ ربيع الثاني ١٤٢٠هـ، الموافق ١٧ تموز ١٩٩٩م

نظرات

في منهج العمل الإسلامي

أولاً:

في منهج العمل الإسلامي

في منهج العمل الإسلامي

القاعدة الأولى:

الجماعة ضرورة

العمل لإعادة بناء الإسلام الكامل من جديد في أي مجتمع من المجتمعات لا بد أن يكون عملاً جماعياً، فهذا العمل الجماعي جهاد شرعه الإسلام وأملته الضرورة العملية.

هذه قاعدة لا شك فيها، ويكفي في الدلالة على ضرورتها أنه هكذا فعل رسول الله ﷺ حين بدأ دعوته المباركة بمكة.

ومن مبررات هذه السنة النبوية :

(أ) أن المؤمنين -في حكم الإسلام- ليسوا أفراداً منفصلين عن بعض. وإنما هم أخوة، وهم -من ثم- جماعة مؤتلفة ذات شخصية متميزة. فمن الطبيعي -إذن- أن يتبع لقاء القلوب هذا: لقاء المشاركة في تحمل

أعباء الدعوة إلى الله تعالى. وأن يكون الأفراد الدعاة القلة -في البداية- هم البذرة الصالحة. والصورة المصغرة للمجتمع الإسلامي المنشود.

(ب) إن التعاون على العمل وسيلة لا يتم واجب الدعوة إلا بها ولا يقوى المؤمنون على مواجهة التيارات المناوئة والمعادية إلا بها بل لا تتم تربية الدعاة وتدريبهم وتثبيتهم إلا بها.

لقد رغب القرآن الكريم والسنة المطهرة في العمل الجماعي ترغيباً بيناً واقترن ضمير (الجمع) -في القرآن والسنة- بالعزائم على فعل الخير. ودعم الحق.

القاعدة سليمة بلا ريب. ولكن بعض الناس غلا في تصوره لأهمية الجماعة ومن الأمثلة على ذلك:

أولاً : قياسها على جماعة الصحابة بمكة بقيادة الرسول ﷺ، ومن غير مراعاة للفوارق فدعاهم هذا إلى تكفير كل من لم ينضم إليهم وكل من خرج منهم لأنه هكذا كان الحال أيام الرسول ﷺ. ذلك تصورهم المغالي.

هؤلاء نسوا:

(أ) أن قائد تلك الجماعة كان الرسول ﷺ وأن طاعته والانقياد له: أمر لا يتم الإسلام للمرء إلا به سواء في حياة الرسول ﷺ أو بعد مماته.

﴿ يا أيها اللذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم، يا أيها اللذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت

النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ (الحجرات:١-٢)

﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (الحشر:٧)

سأل رجل ابن عباس -رضي الله عنه- عن مسألة فأجابه فيها بحديث.

فقال الرجل: قال أبو بكر وعمر ...

فقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله ﷺ. وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟[1].

ومن هنا لا يجوز قياس قيادة جماعة من جماعات العمل الإسلامي على قيادة الرسول ﷺ. فلئن كان ابن عباس أنكر قياس كلام أبي بكر وعمر -رضي الله عنهما- على حديث الرسول ﷺ، فإن اطراد علة النهي ينتظم الذين هم دون أبي بكر وعمر في السبق والفضل والعلم والإيمان، فهما خير "خير القرون".

(**ب**) أن الواقع الفعلي كان مطابقاً للأمر التشريعي فلم يكن هنالك إنسان يدعي أنه مسلم. أو يشهد أن لا إله إلا الله، ويقيم الصلاة، وهو لا يعد نفسه عضواً في هذه الجماعة. وواقعنا الآن غير ذلك.

فالملايين من الناس ينتسبون إلى الإسلام ويصلون ويزكون ويصومون ويحجون، وهم لا ينتسبون إلى جماعة من الجماعات الإسلامية. فالحكم عليهم بالكفر -قياساً على أولئك- تحكم وتعسف وإنكار للواقع المماثل.

---

[1] رفع الملام عن الأمة الأعلام ص ٥٤.

ثانياً: اعتبارها الجماعة التي ورد ذكرها في بعض الأحاديث النبوية.

لقد تتبع الإمام الشاطبي في كتابه (الاعتصام) آراء العلماء في معنى كلمة الجماعة الواردة في هذه الأحاديث فوجدها خمسة:

١. السواد الأعظم من أهل الإسلام.
٢. جماعة أئمة العلماء المجتهدين.
٣. الصحابة على الخصوص فهم الجماعة الأولى الممدوحة في القرآن والسنة.
٤. جماعة أهل الإسلام في مقابل غيرهم من أهل الكفر.
٥. جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على الإمام الموافق للكتاب والسنة.

خلص الإمام الشاطبي من هذا إلى قوله:

(فهذه خمسة أقوال دائرة على اعتبار أهل السنة والإتباع وأنهم المرادون بالأحاديث).

يتضح من تلخيص الشاطبي ومن تعليقه: أن الجماعة المذكورة في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن حصرها في واحدة من الجماعات الإسلامية القائمة الآن. والمعروفة بأسمائها وقادتها ونظمها وأعضائها.

فاعتبار جماعة من هذه الجماعات هي جماعة المسلمين واعتبار الخلوج منها كافراً، أو مفارقاً للجماعة، أو ميتاً ميتة جاهلية. كل هذا تعسف لا مبرر له، وتحجير لأمر جعله الله واسعاً.

إن الجماعة المقصودة في هذه الأحاديث ليست عدداً محصوراً من الناس وإنما هي مجموعة أوصاف كل من اتصف بها فهو من جماعة المسلمين، وكل من أخل بشروطها فهو ليس منهم. هل يعني هذا أنه كافر كفراً يخرجه عن الملة الإسلامية؟

إن هذا يعتمد على مدى الإخلال بتلك الشروط: فالمبتدعون -حسب تلخيص الشاطبي- لا يدخلون في هذه الوحدة، ولكنهم ليسوا جميعاً بكفار.

إن أهل السنة لم يكفروا الخوارج ولا الشيعة ولا المعتزلة. مع أنهم يرون أنهم مبتدعون.

وكما غلا الناس في حصر معنى الجماعة وتضييقه وتتريله على جماعة بعينها من الجماعات القائمة اليوم فقد غالوا كذلك في تفسير بعض العبارات الواردة في أحاديث الجماعة هذه.

من ذلك:

(أ) وصفهم: للذي يخرج عن جماعتهم بأنه خرج على الجماعة.

مع أن عبارة (خرج على) تعني المقاومة المسلحة لا مجرد المفارقة والابتعاد.

وحتى هذا الخروج المسلح على الجماعة المسلمة المبايعة لحاكم عادل لا يعتبر -في حد ذاته- كفراً. وإن أعتبر جريمة كبيرة. والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت**

إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله... ﴾ (الحجرات:٩)، فسماهم الله مؤمنين رغم قتالهم.

والدليل عليه أيضا أن علياً -رضي الله عنه- لم يكفر الخوارج رغم خروجهم عليه، ومع وجود الأحاديث الصحيحة الواردة بشأن ضلالهم.

وفي القرآن الكريم ما يدل على أن الذي لا يلتحق بجماعة المسلمين -بمعنى الجماعة المبايعة لإمام عادل- ليس بكافر، وإن كان آثماً.

يقول تعالى في سورة الأنفال:

﴿ واللذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ (الأنفال:٧٢).

يقول الأستاذ سيد قطب تعليقاً على هذه الآية وهو يفسر سورة الأنفال في كتابه (في ظلال القرآن):

"ثم وجد أفراد آخرون دخلوا في هذا الدين عقيدة ولكنهم لم يلتحقوا بالمجتمع المسلم فعلاً. لم يهاجروا إلى دار الإسلام التي تحكمها شريعة الله، وتدبر أمرها القيادة المسلمة، و لم ينضموا إلى المجتمع المسلم الذي أصبح يملك داراً يقيم فيها شريعة الله، ويحقق وجوده الكامل بعد ما تحقق له وجوده في مكة نسبياً بالولاء للقيادة الجديدة، والتجمع في تجمع عضوي حركي مستقل ومنفصل عن المجتمع الجاهلي ومواجهة له بهذا الوجود المستقل المميز.

وجد هؤلاء الأفراد سواء في مكة أو في الأعــراب حــول المدينــة، يعتنقون العقيدة ولكنهم لا ينضمون للمجتمع الذي يقــوم علــى هــذه العقيدة ولا يدينون فعلاً دينونة كاملة للقيادة القائمة عليه.

وهؤلاء لم يعتبروا أعضاء في المجتمع المسلم و لم يجعل الله لهم ولايــة -بكل أنواع الولاية- مع هذا المجتمع لأنهم بالفعل ليســوا مــن المجتمــع الإسلامي"[2]

ولقد حرصت على أن أنقل رأي الأستاذ سيد قطب بالذات لأن لــه عبارات أخرى . إذا أخذت على ظاهرها -كما أخذها الكثــيرون مــن قرائه- فإنها تدخل ضمن هذا الغلو الذي أنتقده.

ولكن كلامه هنا -جد واضح- في أنه لا يعتبر الــذي لا ينضــم إلى جماعة المسلمين كافراً.

(ب) تفسيرهم لعبارة (مات ميتة جاهلية) بأنها تعني الكفر والــردة.

مع أن العلماء السابقين اعتبروها كقول الرسول ﷺ لأحد الصحابة (إنــك امرؤ فيك جاهلية)، وفسروها بأنها ميتة أشبه ما تكون بميتــة الجــاهليين الذين لا يخضعون لسلطان. ولا يبايعون إماماً.

ثالثاً: الابتداء من حيث بدأ الرسول ﷺ. والمرور بكل المراحل الـتي مر بها حتى يتكون المجتمع الإسلامي الجديــد كمــا تكــون المجتمــع الإسلامي القديم بالمدينة.

[2] في ظلال القرآن ج٣ ص١٥٥٨ طبعة دار الشروق.

وهذا أيضاً قياس مع الفارق. وإغفال للواقع. أفكلما تكونت جماعة جديدة للدعوة إلى الإسلام اعتبرت نفسها جماعة المسلمين. وبدأت من الصفر كما بدأ الرسول ﷺ مغفلة جهوده هو وجهود المسلمين من بعده. بل وجهود الجماعات الأخرى المعاصرة لها، والتي سبقتها في ميدان الدعوة وأثرت في واقع الحياة؟

القاعدة الثانية:

التركيز على العقيدة لا يعني إهمال الجوانب الأخرى

القاعدة الثانية، التي صحت جوهراً وعلماً. وأخطأ الناس في فهمها وتطبيقها هي: قاعدة التركيز على العقيدة.

إن صحة العقيدة شرط في صحة الإسلام، وصحة العمل الإسلامي. فلا يتقبل الله عملاً إلا إذا كان منبثقاً من عقيدة سليمة خالصة.

هذه قاعدة صحيحة. لكن أناساً من المسلمين غلو في دينهم وفي تفسير هذه القاعدة. ومازالوا يتحرون الغلو حتى دعوا إلى هجر كل شيء ابتغاء التركيز على العقيدة وحدها.

هذا هو موقف قليل العلم والفقه. وهو كذلك موقف سلبي بمقياس العمل والجهاد. ومقولتهم في هذا هي: أن منهج الأنبياء عليهم صلوات الله وسلامه، هو الابتداء بدعوة الناس إلى تصحيح العقيدة حتى إذا ما صحت وتركزت في القلوب جاءت تفاصيل التشريع بنياناً معتمداً على أساسها المتين.

هذا كله صحيح. إنما جاء الخطأ من عدة أوجه. فالغلو هنا هو نتيجة الغلو في تفسير القاعدة الأولى. وذلك قول البعض: يجب أن نبدأ بالعقيدة

كما بدأ الرسول ﷺ فلا ندعو الناس إلا إليها. لا ندعوهم إلى تفاصيل النظم الاقتصادية أو السياسية أو القانونية. لأن قبول هذه النظم تابع للتصديق بأنها من عند الله. والذي يؤمن بأنها من عند الله لن يتلجلج في قبولها. ولن يحتاج إلى أن نبين له محاسنها أو فضلها على غيرها من النظم.

وهذا التصور يهدم أو ينقض العرى الباقية من عرى الإسلام.

١. فهذا الكلام إذا أخذ بحرفيته، فإنه يؤدي إلى نتائج شنيعة، فهو يعني ألا نتعرض لتفاصيل الصلاة والصوم والزكاة والحج والأحوال الشخصية، ولا ندعو الناس إلى ترك الخمر والميسر والربا والزنا والظلم الاقتصادي والسياسي، ولا نلزم الدعاة أنفسهم بشيء من هذا، ولا نقرأ القرآن المدني ولا نتدبره، ولا أحاديث الرسول ﷺ بالمدينة، ولا نعرف شيئاً عن سيرته بها. وإذا كان هذا شنيعاً وكان لابد من الحديث عن هذه التفاصيل فما الذي يمنع من الحديث عن تفاصيل الاقتصاد والسياسة؟ فما الفرق بين هذا وذاك؟

٢. الدعوة إلى توحيد الله تعالى لم تكن -حتى في البداية- منفصلة عن الإيمان بالدار الآخرة، والإيمان بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بأن القرآن وحي من عند الله. بل لم تكن منفصلة عن الدعوة لمكارم الأخلاق وحسن معاملة الناس.

وكل هذه أمور يحتاج الذي لا يؤمن بها إلى أدلة وبراهين وآيات تبين له أنها حق.

فإذا أردنا أن ننهج النهج النبوي بمكة، فلابد من أن نحدث الناس في كل هذه القضايا، لكي نبين لهم أن القرآن كلام الله تعالى. لابد أن نريهم إعجازه. وإذا كان العرب الذين نزل عليهم القرآن الكريم قادرين على تبين إعجازه البياني، فإن أكثر الناس اليوم عاجزون عن رؤية هذا الإعجاز البياني ولكن حكمة الله تعالى قضت بألا يكون إعجاز الرسالة الخاتمة مقصوراً على الإعجاز البياني الذي كان مناسباً للأمة التي خوطبت بها أول مرة.

لقد جعل الله إعجاز القرآن أمراً مستمراً تراه كل الأجيال على مدى الزمان وامتداد الأيام. ومن هذا الإعجاز: الهدي الذي جاء به القرآن الكريم، وهذا الهدي يشمل: الهدي الاقتصادي والسياسي والأخلاقي والنفسي والاجتماعي .. إلخ.

لقد كان الأنبياء -فيما مضى- يدعون أممهم إلى التوحيد ويربطون هذه الدعوة بالمسائل التي تهم أممهم. فدعوة شعيب -عليه السلام- ارتبطت بمشكلة اقتصادية ﴿ **وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط** ﴾ (هود: ٨٤).

ودعوة موسى عليه السلام ارتبطت بمشكلة سياسية: ﴿ **فأتيا فرعون فقولا إنَّا رَسُولُ رب العالمين ۝ أن أرسل معنا بني إسرائيل** ﴾ (الشعراء:١٦-١٧).

ولكن دعوة محمد ﷺ جعلت قرآناً محفوظاً وسنة مبينة. دعوة فيها أصول الحلول لكل مشاكل الإنسان. والداعية البصير يتخير من هذا الهدي الشامل الذي يجده بين يديه، الأمور التي يراها تشغل بال قومه وزمانه، فيربطها بدعوة التوحيد. وغرضه من هذا ليس هو -كما يخشى البعض- دعوتهم إلى الالتزام بهذه القضايا مستقلة عن العقيدة، بل غرضه أن يجعلها ذريعة يعطف بها قلوب مخاطبيه إلى الإيمان بالله، وبرهاناً على أن القرآن الكريم كلام الله.

٣. القول بأن الإنسان حين يؤمن بالله تعالى ويكون مسلماً لا يحتاج لأن نبين له محاسن ما يأمره الله به أو مساوئ ما ينهاه عنه. قول يبدو في ظاهره صحيح ولكنه غير صحيح.

أولاً: هنالك فرق بين الإيمان المجمل والإيمان المفصل. فرق كبير بين من يؤمن على وجه الإجمال: بأن كل ما أمر الله به فهو خير وكل ما نهى عنه فهو شر، وبين من يعرف -بالأدلة العقلية، أو التجربة الحسية- الخير الكامن في أمور معينة أمر الله بها، وأمور معينة نهى الله عنها، إن الإيمان الصحيح هو الإيمان الذي يقوم على العلم. إذاً فكلما علم الإنسان وآمن بما علم كلما ازداد إيمانه، والإيمان -كما هو معروف- يزيد وينقص.

ثانياً: إن المعرفة نفسها درجات فالمعرفة بمجرد الخبر، غير المعرفة بالدليل والتجربة، حتى لو كان المخبر هو الله تعالى.

قال تعالى: ﴿ **ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً قـال بئسما خلفتموني من بعدي أعجلتم أمر ربكم وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه** ﴾ (الأعراف: ١٥٠).

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم معلقاً على هذه القصة: **يرحم الله موسى: ليس المعاين كالمخبر. أخبره ربه عز وجل أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح، فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح**[٣].

وأبو الأنبياء إبراهيم - عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه - قـال: ﴿ **رب أرني كيف تحي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** ﴾ (البقرة: ٢٦٠).

ويقول الرسول ﷺ معلقاً على موقف إبراهيم هذا: **نحن أحق بالشك من إبراهيم** [٤].

يقول ابن كثير إن الشك المذكور هنا ليس الشك المعهود وإن إبراهيم عليه السلام أراد -وكما ذكر البعض- أن ينتقل من درجة علم اليقين إلى درجة عين اليقين.

ثالثاً: لو كان الأمر كما يصوره هذا الغلو في تفسير الإيمان لجاءت آيات الأمر والنهي في القرآن الكريم كالأوامر العسكرية غليظة جافة لا تبين حكمة أو سبباً، ولا تعلل أمراً أو نهياً، ولا تسلك الأسلوب الذي تلين له القلوب. ولكن الواقع أنها تفعل كل هذا.

---

[٣] أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن عباس مرفوعاً. انظر تفسير ابن كثير عند تفسير هذه الآية.

[٤] رواه مسلم-كتاب الإيمان ٢١٦.

انظر مثلاً في قوله تعالى: ﴿ **يا أيها اللذين ءامنوا كُتِبَ عليكم الصيام كما كُتِبَ على اللذين من قبلكم لعلكم تتقون ۞ أياماً معدودات فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر وعلى اللذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون ۞ شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر. يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون** ﴾ (البقرة: ١٨٣-١٨٥).

ولنحاول فقه هذه الآيات:

﴿ **كما كُتِبَ على اللذين من قبلكم** ﴾ إشعار بأن ما أمرتم به ليس شيئاً جديداً. وإنما هو أمر قد جربه الناس من قبلكم واحتملوه.

﴿ **لعلكم تتقون** ﴾ فالصيام ليس مأموراً به لما فيه من المشقة، ولكن لأن هذه المشقة وسيلة لابد منها لنيل التقوى التي هي هدف كل مؤمن بالله تعالى.

﴿ **أياماً معدودات** ﴾ فأنتم لستم مطالبين بصيام الدهر كله ولا نصفه وإنما هو شهر واحد. إنها أيام معدودة وتنقضي.

ومع هذا ﴿ **فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ ومن كان يحتمله ولكن بمشقة كبيرة. فليفطر وليفد.

والشهر المطلوب منكم صيامه ليس شهراً كسائر الشهور، إنه ﴿**شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان**﴾

وفي بقية السياق مزيد من بيان الحكم والتعليل. ولكن لعل فيما ذكرنا كفاية لبيان ما نريد.

رابعاً: إننا إنما نعرف الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته. والذي يدلنا على أسمائه وصفاته هو مخلوقاته وآياته وآلاؤه. إذن فكلما عرفنا الصلة بين شيء أمر به أو نهي عنه، وبين حكمته تعالى أو رحمته أو عدله أو فضله، كلما ازدادت معرفتنا بالله تعالى وازداد إيماننا به وحبنا له.

ولهذا القرآن الكريم لا يقتصر على بيان الثواب والعقاب الأخرويين. بل يبين لنا آثار الإيمان ومنافعه في هذه الحياة الدنيا أيضاً. ويحذرنا من الكفر ويبين لنا أضراره في هذه الحياة الدنيا.

﴿**ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون**﴾ (الأعراف:٩٦).

﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾ (الأنبياء:١٠٥).

﴿ **ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون** ﴾ (البقرة:١٧٩).

خامساً: ولو كان هذا الكلام صحيحاً. لما كان هناك مجال لسهم المؤلفة قلوبهم. فإذا جاز أن تؤلف قلوب الناس بالمال حتى تنعطف على

الإيمان فلماذا لا تؤلف بالحديث عن المال أي عن هدي الإسلام في شئون الاقتصاد وهديه في السياسة.

سادساً: هذا النوع من التفكير أورث بعض الدعاة نوعاً من الجفاء والغلظة في مخاطبة الآخرين مع أن الله سبحانه وتعالى يقول لرسولهﷺ: ﴿ **ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك** ﴾ (آل عمران:١٥٩).

إن هذه الآية توضح أنه لا يجدي مع الفظاظة منطق ولا بيان حق. ولا أي نوع من الإغراء. إنها وحدها كافية لفض الناس الخيرين عن الداعية مهما كانت رسالته ومهما كانت حجته.

يقول الشيخ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الوزير في كتابه:

(إيثار الحق على الخلق) معلقاً على آية: ﴿ **لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادُّون من حادَّ الله ورسوله** ﴾ (المجادلة:٢٢).

(هذا كله في الحب الذي هو في القلب والمخالطة لأجل الدين. وذلك للمؤمنين المخلصين بالإجماع. وللمسلمين الموحدين. وأما المخالطة والمنافعة وبذل المعروف وكظم الغيظ وحسن الخلق وإكرام الضيف ونحو ذلك فيُستحب بذله لجميع الخلق. إلا ما كان يقتضي مفسدةً كالذلة فلا يبذل للعدو في حال الحرب. كما أشارت إليه الآية ﴿ **لا ينهاكم الله عن اللذين لم يقاتلوكم في الدين** ﴾ (المجادلة:٢٢).

﴿ **وصاحبهما في الدنيا معروفاً** ﴾ (لقمان:١٥). ﴿ **فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون** ﴾ (الشعراء: ٢١٦).

فأمره بالبراءة من عملهم القبيح لا منهم.

وهو يرى أن المسلم ليس منهياً عن أن يحب العاصي لخصلة خير فيه ولو كان كافراً.

وعصيان المسلم لا ينفي حبه لله ورسوله "**لا تعينوا الشيطان على أخيكم، أما إنه يحب الله ورسوله**"[°]. والرسول ﷺ كان شديد الحرص على هداية قومه كثير الحزن على إعراضهم ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ (فاطر:٨). ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ﴾ (الكهف:٦).

كنت أمشي مع أحد الإخوة المسلمين السود في أمريكا. **فطفق يعبر** عن حرصه الشديد على هداية قومه ورغبته في إنقاذهم **مما هم فيه. فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان إنها دمعة الرحمة وحب الخير للناس.**

[°] رواه البخاري.

القاعدة الثالثة:

أخذ الإسلام كاملاً ١٠٠٪ أو لا شيء

ومنهم من ينادي أو يخير المسلمين بين أمرين: إما أن يأخذوا الإسلام كله، وإما أن يدعوه كله. وهذا غلو حمل أصحابه على الضيق بكل بادرة للخير. وإساءة الظن بكل جزئية من جزئيات الحق والإصلاح. إنهم يريدون إلغاء كل عمل إسلامي ليؤسسوا عملاً إسلامياً كاملاً.

إن النهج السليم أن نرحب بكل خطوة خير -ولو كانت من كافر- وأن نطالب كل فاعل خير بالمزيد حتى تدخل في شرائع الإسلام جميعاً.

فلقد دعا الرسول ﷺ إلى التوغل في الدين برفق، والرفق هنا يعني:

١. تناول الدين برفق.

٢. التدرج في السعي نحو الكمال الممكن.

وإنه لمن المشادة الفكرية للدين أن يرفع شعار "إما الإسلام كله.. وإما تركه كله". وإنه لمن المشادة العملية للدين أن يحاول أقوام تطبيق هذا الشعار وجعله سلوكاً عملياً. وإنهم لمغلوبون إن هم فعلوا ذلك "**ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه**".

الطريقة الصحيح هي أن نعتبر أنفسنا بنائين نشيد صرح الإسلام لبنة لبنة، وأن نعد كل عمل إسلامي إضافة لبنة لهذا البناء.

لئن أُريد بشعار -أو فكرة- (خذوا الإسلام كله أو دعـــوه كلـــه) الإيمان الكامل بكل ما جاء بالقرآن الكريم والسنة المطهرة فهذا حق. لأننـا مكلفون بالإيمان بالكتاب كله. ولعل الخلط بين هذه القضية وبين تطبيـــق الإسلام -وفق الاستطاعة- هو علة الغلو والفهم الخاطئ.

القاعدة الرابعة:

الحذر من كيد الأعداء

هذه قاعدة سليمة اكتنفها الغلو في الفهم والتطبيق. فالحذر -كيقظة نفسية وعقلية وسياسية- مطلوب في الحرب والسلم.

﴿ يا أيها اللذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو انفروا جميعاً ﴾ (النساء: ٧١).

﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم وأحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ (المائدة: ٤٩).

لكن الاسترسال الوهمي مع الحذر: غلو يحقق أهداف الأعداء من حيث أراد أصحابه أن يحبطوا كيد الأعداء، فالغلو في الحذر يحوله إلى مخاوف تقوض العزيمة. وتربك كل عمل. وتشيع التطير والجزع في صفوف الإسلاميين. وهذه غاية يسعى إليها المناوئون للإسلام.

ومن أمثلة هذا الغلو في فهم وتطبيق هذه القاعدة:

- كيد الأعداء هو سبب تخلفنا وسبب كل شر أصابنا في ديننا ودنيانا.
- الشعب طيب خَيِّر.
- الحكومات وحدها هي التي تعيق تقدم الإسلام والمسلمين.

- والحكومات فريسة للاستعمار والشيوعية.
- والشيوعية والاستعمار فرائس للصهيونية العالمية.

هذه الوسوسة المعقدة -الناتجة عن غلو في فهم الحـذر- أصبحت كالعقيدة المفروغ من صحتها وجدواها.

ونستطيع القول: بأن هذا التصور يتناقض مع منهج القرآن في تحليل أسباب الضعف والهزيمة والمصائب. فالقرآن الكريم يرد الكوارث والمصائب التي تحيق بالإنسان إلى أسباب داخلية. نابعة من نفسه ومن انحرافه، ومن إخلاله بشروط الاستقامة، ومن تجاهله لسنن الله تعالى في المجتمع البشري:

﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ﴾ (الشورى: ٣٠).

﴿ أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم ﴾ (آل عمران: ١٦٥).

﴿ فأعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ﴾ (المائدة: ٤٩).

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون ﴾ (الروم: ٤١).

﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ (التوبة: ٢٥).

نعم هناك أسباب خارجية. وهي أسباب حقيقية ولكنها ثانوية. وهذه الأسباب لن تضرنا شيئاً إذا صحت الاستقامة على دين الله. وصح فقهنا

للدين. وصح تطبيقنا له وصح عزمنا على التفتيش عن أسباب ضعفنا داخل أنفسنا أولاً.

﴿ كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ﴾ (المائدة: ٦٤).

﴿ لن يضروكم إلا أذى ﴾ (آل عمران: ١١١).

﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

﴿ إن الله يدافع عن اللذين آمنوا ﴾ (الحج: ٣٨).

﴿ ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾ (الأنفال: ٣٠).

فإذا فقهنا هذا فقد ترتب على هذا الفقه:

١. أن نصارح الشعوب بأنها هي سبب الهزائم والتخلف.

٢. أن نكثف العمل في إصلاح الشعوب ذاتها.

٣. أن نسعى لإصلاح الحكم باعتباره صورة من المجتمع أو جزءاً من واقع الشعوب.

٤. لا نكتفي بمجرد إلقاء الاتهام، بل نبذل جهداً حقيقياً في التحقيق والتثبت. وجهداً إيجابياً في تغيير الواقع.

٥. أن نستفيد من تضارب مصالح الخصوم متخلين عن النظر إليهم باعتبارهم شيئاً واحداً **﴿ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ﴾** (الحشر: ١٤)

٦. أن نحرر القلب الإسلامي من ضغوط الوسواس والتطير والاستسلام لفكرة القوى الخفية التي تدير العالم.

فهي ضغوط أصابت الكثيرين بالشلل أو بالتردد والارتباك.

ثانياً:

قضية المنهج عند سيد قطب في

(معالم في الطريق)

قضية المنهج عند سيد قطب في

(معالم في الطريق)

أهمية المنهج:

قضية المنهج من أهم القضايا الفكرية التي واجهتها الحركة الإسلامية المعاصرة، لأن علاقة المنهج بالحركة علاقة طبيعية وشجية، فالذي يريد أن يتحرك حركة عاقلة رشيدة، لابد له أن يحدد الغاية التي يريد التحرك نحوها، والطريق الذي يسلكه لبلوغ تلك الغاية.

ولأنها -كذلك- من أكثر القضايا التي ينبني عليها العمل، والتي يؤدي الاختلاف فيها -من ثم- إلى اختلاف بين الجماعات العاملة للإسلام، وإلى انشقاقات داخل الجماعة الواحدة.

ولأن الخطأ في فهمها قد يؤدي إلى تطويل الطريق، أو اعتسافه، ويؤدي من ثم إلى دفع أثمان باهظة وفقد ضحايا غالية، وقد يؤدي إلى الخمود والركود أو اليأس والقنوط، وقد يؤدي إلى الفشل برغم طول المدة وكثرة العمل، إلى غير ذلك من النتائج الخطيرة على سير الحركة.

غاية الحركة الإسلامية:

قلنا إن الحركة الرشيدة تستدعي تحديداً للطريق الموصل إليها، فما غاية الحركة الإسلامية في عصرنا؟ يجيب كثير من الدعاة عن هذا السؤال بقولهم: إن غايتنا هي مرضاة الله تعالى. وهذا صحيح إذا كان المقصود به الغاية الكبرى والقصوى. لكن هذه غاية يبتغيها كل مسلم، سواء كان فرداً منعزلاً في جزيرةٍ أو شعبِ جبل، أم كان عاملاً في جماعة، وبغض النظر عن الجماعة التي ينتمي إليها والعصر الذي يعيش فيه والمكان الذي يوجد فيه.

وهذه الغاية الكبرى تندرج تحتها غايات هي بمنزلة الوسائل المؤدية إليها، والناس حين ينتظمون في جماعة يكون غرضهم -باعتبارهم جماعة- تحقيق إحدى هذه الغايات الثانوية، ﴿ **الذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وءآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور** ﴾ (الحج: ٤١). فالمؤمنون يسعون -كما يسعى الكفار- للتمكن في الأرض، لكن غرضهم من التمكن هو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهم يفعلون هذا ابتغاء مرضاة الله تعالى ﴿ **لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروفٍ أو إصلاحٍ بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً** ﴾ (النساء: ١١٤).

وإذن فالمؤمن قد يسعى لتحقيق الغاية نفسها التي يسعى لتحقيقها الكافر، وقد يعمل العمل نفسه الذي يعمله الكافر أو المنافق، لكن المؤمن يعتبر هذه الغاية الأرضية وسيلة لغاية سماوية أكبر، بينما يعتبرها الكافر غاية نهائية، أو وسيلة لغاية أرضية أخرى **﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين ﴾** (القصص: ٨٣).

نعود لسؤالنا مرة أخرى: ما غاية الحركة الإسلامية في عصرنا؟ غايتها أن تتمكن في الأرض لتجعل الحياة في كل أرض تمكنت فيها موافقة لشرع الله تعالى في تصورات الناس العقدية، وشعائرهم التعبدية، وعلاقاتهم الاجتماعية، ونظمهم السياسية، وأوضاعهم الاقتصادية، وسياساتهم الدولية ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً.

أهمية كتاب المعالم:

كيف تعمل الحركة إلى هذه الغاية؟ هذه هي قضية المنهج التي نتحدث عنها، والتي هي موضوع كتاب المعالم، ذلك الكتاب الذي لا نعرف في تاريخ الحركة الإسلامية المعاصرة كتاباً كان أكثر منه انتشاراً، ولا أقوى تأثيراً، ولا أخطر نتائج، ولا أشد رعباً لأعداء الحركة الإسلامية. وقد انقسم الناس حوله ثلاث فئات:

- فئة قادحة اعتبرته سحراً أسوداً، ودعوةً للظلم، وبرنامجاً للتخريب والإثارة والخروج.
- وكثرة من الشباب مادحة اعتبرته أملها المفقود، ورائدها المأمول الذي يحدد لها معالم الطريق الذي تسلكه للتمكن في الأرض.
- وفئة منصفة اعتبرته كالفئة الثانية كتاباً عظيماً لداعية عظيم، وأخذت ما فيه من حق وخير واستفادت منه كثيراً، لكنها ظلت تذكر أن مؤلفه -مع إخلاصه وسعة علمه- بشر لم تُكتب له العصمة فأخذت من قوله وتركت.

منهج بحثنا:

وعلى منهج هذه الفئة الثالثة نحاول أن نسير في هذا البحث القصير فنؤيد الكاتب فيما أصاب فيه. ونفسر بعض عباراته التفسير الذي نراه صحيحاً ومناسباً. ونستدرك عليه بعض ما يبدو لنا أنه أخطأ فيه. ونستدرك على بعض قرَّائه بعض ما نراهم أخطأوا فيه، سواء كان لخطئهم هذا ما يسوغه من كلمات الكاتب الشهيد أو لم يكن ذلك. وذلك لأن غرضنا هو التعاون على تسديد سير هذه الحركة حتى تبلغ غايتها وتؤتي ثمارها بإذن الله تعالى.

غاية الحركة ومنهجها في كتاب المعالم:

يستهل الأستاذ سيد قطب كتابه بتقرير أن الحضارة الغربية بشقيها الديمقراطي الرأسمالي والجماعي الشيوعي لم تعد صالحة لقيادة البشرية بسبب إفلاسها في عالم القيم.

وأنه لا بد من قيادة جديدة تملك إبقاء الحضارة المادية وتنميتها، وتزود البشرية بقيم جديدة جدة كاملة، وبمنهج أصيل وإيجابي وواقعي، وأن الإسلام وحده هو الذي يملك تلك القيم وهذا المنهج.

ولكن الإسلام لا يملك أن يؤدي أهدافه إلا أن يتمثل في مجتمع، بيد أن وجود الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة.

فلا بد إذن من "بعث" تلك الأمة كي تتسلم القيادة، ويتساءل الكاتب: كيف تبدأ عملية هذا البعث الإسلامي؟

وهذا يقوده إلى قضية المنهج التي نحن بصددها. ولعلنا نستطيع أن نرتب خطوات هذا المنهج من شتى فصول الكتاب في الآتي:

- أول خطوة في طريق بعث الأمة الإسلامية هي وجود طليعة تعزم على تسلم القيادة.
- الأفراد الممثلون لهذه الطليعة، الذين انسلخوا عن المجتمع الجاهلي، والذين خلصت ضمائرهم من العبودية لغير الله يكوّنون جماعة مسلمة هي التي ينشأ منها المجتمع المسلم.

- لابد لهذه الطليعة من معالم في الطريق تعرف منها طبيعة عملها وحقيقة وظيفتها وصلب غايتها ونقطة البدء في الرحلة الطويلة، كما تعرف منها طبيعة موقفها من الجاهلية الضاربة الأطناب في الأرض جميعاً. أين تلتقي مع الناس وأين تفترق؟ ما خصائص الجاهلية من حولها؟ كيف تخاطب أهل هذه الجاهلية بلغة الإسلام وفيما تخاطبها؟ ثم تعرف: أين تتلقى في هذا كله، وكيف تتلقى؟ (ص ١٢).

هذه المعالم لابد أن تستقي من المصدر الأول لهذه العقيدة: القرآن. و"**معالم في الطريق**" كُتِبَ للوفاء بهذا الغرض، وهو موجه لتلك الطليعة المرجوة المرتقبة.

- لكي تؤدي هذه الجماعة رسالتها وتتسلم قيادة البشرية، عليها أن تكون كجيل الصحابة، ذلك الجيل القرآني الفريد، لأن القرآن والسنة الذيّنِ خرَّجا ذلك الجيل مازالا بين أيدينا، و لم يغب إلا شخص الرسول صلى الله عليه وسلم، وغيبة شخصه صلى الله عليه وسلم لا تفسر عدم تكرار جيل الصحابة.
- ولكي تكون هذه الطليعة كذلك الجيل عليها أن تسلك المنهج الذي تخرج عليه وهو يتمثل في:
  - أن تستقي من القرآن وحده ولا تخلطه بمنابع أخرى.
  - وأن تتلقى منه لتنفذ لا لتستمع أو تتثقف.
  - وأن تعتزل الجاهلية المحيطة بها.

- أول ما تلقاه ذلك الجيل القرآني، وأهم ما تلقاه من القرآن الكريم هو العقيدة، وبالعقيدة ينبغي أن تبدأ هذه الطليعة الجديدة.
- العقيدة هي: لا إله إلا الله، وهي تعني رد الحاكمية لله في الأمر كله، وطرد المعتدين على سلطان الله بادعاء هذا الحق لأنفسهم.
- إن أول ما ينبغي أن ندعو الناس إليه هو العقيدة، حتى لو كانوا يدعون أنفسهم مسلمين، فقد ظل القرآن المكي ثلاثة عشر عاماً يتحدث في قضية العقيدة ولا يتجاوزها إلى شيء مما يقوم عليها من التعريفات المتعلقة بنظام الحياة. لماذا؟ لأن العقيدة هي الأساس الذي تقوم عليه وتنبثق منه كل تنظيمات الإسلام وتشريعاته.
- فإذا استقرت العقيدة في النفس استسلمت للنظام حتى قبل أن تعرض عليها تفصيلاته. ولأن هذا الدين منهج عملي حركي جاد، ومن ثم فهو لا يشرع إلا لحالات واقعة فعلاً.
- والقرآن لم يعرض قضية العقيدة في تلك الفترة في صور (نظرية) أو (لاهوت) أو (جدل كلامي) وإنما كان يخاطب فطرة الإنسان (ص ٤٢).
- ولذلك لم يعرض القضية في تلك الصور وإنما عرضها في صورة تجمع عضوي حيوي وتكوين تنظيمي مباشر للحياة، ممثل في الجماعة المسلمة ذاتها. وكان نمو هذه الجماعة ممثلاً لنمو البناء العقدي (ص ٤٣،٤٤،٤٥).

- كل نمو نظري يسبق النمو الحركي الواقعي ولا يتمثل من خلاله هو خطأ وخطر كذلك (ص ٤٦).

هذا هو المنهج الذي لا يقوم بناء هذا الدين -في أي وقت- إلا به (ص ٤٧).

سر قوة تأثير كتاب المعالم:

نستطيع أن نرى في هذه الصورة الموجزة -إيجازاً يكاد يكون مخلاً لقضية المنهج في المعالم- شيئاً من سر ذلك الاستقبال العظيم الذي قوبل به هذا الكتاب، ولا سيما من الشباب. وشيئاً من ذلك التأثير الذي لم نر له مثيلاً في كتاب حديث.

إنه يدعوهم لهدف واضح كل الوضوح وسامق كأعلى ما يكون السموق. إنه لا يطلب منهم أقل من أن يسعوا لتسلم قيادة البشرية. وهو هدف مغرٍ وجذاب لكل ذي همة من الشباب.

وهو مع اعترافه بأن الطريق إلى ذلك الهدف شاق وطويل، إلا أنه يقنع قارئه بأنه ليس بالأمر المستحيل لمن عزم على السير فيه وأعد له عدته. وهاهي عدته:

إنه قيم جديدة، ومنهج جديد. وكلا الأمرين يملكهما الإسلام ولا يملكهما دين أو مذهب سواه. وإذا كانت الحضارة الغربية قد فاقتنا في المجال المادي فإن التفوق عليها في هذا المجال -مع أهمية التقدم المادي

لوجودنا الذاتي- ليس من المؤهلات المطلوبة لتلك القيادة، فها هو الغروب يتراجع عن تلك القيادة برغم امتلاكه لهذه القوة، وسبب تراجعه هو إفلاسه في عالم القيم.

وهو يدعوهم إلى أن يكونوا كجيل الصحابة، ويغريهم بأن هذا أمر ممكن إذا هم سلكوا إليه المنهج الصحيح.

وإذا أرادوا أن يكرروا ذلك الجيل، وأن يتسلموا قيادة البشرية، فعليهم أن يعتزوا بقيمهم الإسلامية، وأن يستعلوا بها على قيم الحضارة الغربية وسائر القيم الجاهلية التي تسود العالم الذي انسلخوا منه.

عليهم أن يضعوا قيم الإسلام للناس كما هي، من غير اعتذار ولا خجل ولا تدسس، وأن يصارحوهم بأنها تختلف عن القيم التي اعتادوها، وأن المسافة بعيدة بين القيم الإسلامية وهذه القيم الجاهلية، وأن النقلة من هنا إلى هناك بعيدة.

هذه الروح الاستعلائية الاعتزازية القوية هي موضوع بعض فصول الكتاب وفقراته، ولكن الأهم أنها تسري في الكتاب كله وهي في رأيي أهم وأغلى وأبقى ما استفاده الناس من كتاب المعالم.

إن هذا الكتاب بهذه الروح يمثل مرحلة جديدة من مراحل الدعوة الإسلامية المعاصرة، قفزت فيها الدعوة من مرحلة المجاملة، والتردد والاعتذار، إلى مرحلة المباهرة والتحدي والاعتزاز، ولكن بعض الناس مازالوا يعيشون مرحلة ما قبل المعالم.

قلت: إن هذا أغلى وأبقى ما استفاده الناس من كتاب المعالم. وإنه لإنجاز عظيم، وإنها لنعمة كبرى على العبد أن يجعله الله سبباً لنقل الدعاة إلى هذه المرحلة الجديدة التي تتطلبها دعوتهم. ولكن ينبغي ألا ننسى فضل الدعاة الذين سبقوا سيداً، وأن نتذكر أنه لم يبدأ من فراغ، وإنما أضاف لبنات مهمة إلى بناء كان قد وضع أساسه وشيد بعض أدواره دعاة قبله.

هذا بعض ما يتجلى لنا من الصور الموجزة التي رسمناها. وأما إذا اكتملت الصورة بالرجوع إلى الكتاب، وإلى مؤلفه، وإلى الظروف التي خرج فيها، فإن أسراراً أخرى تتجلى.

منها أن الكتاب صيغ بأسلوب يمتاز بالوضوح والقوة والجد والجمال، وباللهجة الصادقة الأمينة؛ يقرؤه الداعية وكأنه خطاب من صديق عزيز يسدي إليه بعض النصائح الغالية.

وقد ظاهرت هذه العوامل الداخلية الذاتية لقوة الكتاب عوامل خارجية؛ فقد ظهر الكتاب في وقت ظن الناس فيه أن الحركة التي ينتمي إليها الكاتب قد قضي عليها، فإذا به يذكرهم بوجودها بهذه الصيحة المدوية.

وقد قرأ الناس بين أسطر الكتاب معارضة قوية للسلطة الغاشمة، التي كانت بلاد الكاتب تعيش تحت وطأتها آنذاك، وزاد من اقتناعهم بذلك مصادرة الكتاب، ومحاولة الحيلولة دون انتشاره. لكن قوة الكتاب بلغت ذروتها حين رأى الناس كاتبه يلقى الموت مطمئن النفس، باسم الثغر مستعلياً على السلطة الغاشمة، ساخراً منها، فهرعوا إلى الكتاب يقرؤونه أو

يعيدون قراءته، وصورة الكاتب الشهيد ماثلة أمام أعينهم، فيحسون أنه كان جاداً وأميناً في كل كلمةٍ خطها قلمه، وتذكر كثير منهم قوله في مناسبة أخرى: إن كلماتنا تظل عرائس من الشمع حتى إذا متنا في سبيلها دبَّتْ فيها الحياة.

جيل الصحابة: هل يتكرر؟

بعد هذا التلخيص والتأييد المجمل نبدأ في تفصيل بعض ما عنّ لنا من استدراكات على كتاب المعالم في قضية المنهج.

إن الكاتب يدعو إلى حركة جديدة يسمي الذين يبدؤونها بالطليعة. مع أنه كان حين كتب هذا الكتاب منتمياً فعلاً إلى جماعة الإخوان المسلمين، وكان معه في السجن آلاف من أعضاء هذه الجماعة التي كان رئيساً لتحرير جريدتها، والتي طالما تحدث عن أهميتها وفضائلها ومنجزاتها. يذكر الكاتب -عليه رحمة الله- في كلماته الأخيرة التي تنشرها جريدة المسلمون اللندنية أنه عمل لتكوين جماعة تكون امتداداً لجماعة الإخوان المسلمين التي حلها "عبد الناصر" وسجن أعضاءها. ولكن لماذا اعتبر الجماعة قد انتهت بقرار الحل؟ وإذا كانت قد انتهت تنظيماً فإن أفرادها ما زالوا موجودين، فلماذا الدعوة إلى حركة جديدة كل الجد؟

أظن -وأظن ظناً- أن تفسير هذا الأمر المستغرب كامن في قضية المنهج، أظن إن "سيداً" كان يرى أن الجماعة الوحيدة التي يمكن أن تعيد

بعث الأمة الإسلامية هي الجماعة التي تتبع المنهج الذي ذكره. وإذا كان هذا المنهج يريد منها، ويمكنها أن تكون كجيل الصحابة فإنها تكون فعلاً جماعة جديدة لا تماثلها جماعة الإخوان المسلمين ولا أية جماعة في تاريخ الإسلام بعد جماعة الصحابة رضوان الله عليهم. يقول الكاتب:

"لقد خرّجت هذه الدعوة جيلاً من الناس -جيل الصحابة رضوان الله عليهم- جيلاً مميزاً في تاريخ الإسلام كله وفي تاريخ البشرية جميعه ثم لم تعد تخرّج هذا الطراز مرة أخرى. نعم وجد أفراد من ذلك الطراز على مدار التاريخ. ولكن لم يحدث قط أن تجمع مثل ذلك العدد الضخم، في مكان واحد، كما وقع في الفترة الأولى من حياة هذه الدعوة" (ص ١٤).

والكاتب يرى أنه بالإمكان تخريج مثل ذلك الجيل حتى في غيبة شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بل لعله يرى أن البشرية وقد عادت إلى جاهلية مثل الجاهلية التي أنقذها منها ذلك الجيل لا يمكن أن ينقذها الآن إلا جيل مثله.

فهل ما قاله الكاتب الفاضل صحيح؟ أصحيح أنه بالإمكان إنشاء جيل كامل كجيل الصحابة رضوان الله عليهم؟ أصحيح أن غيبة شخص الرسول صلى الله عليه وسلم لا تفسر عدم تكرار ذلك الجيل على مدار التاريخ؟

إن هناك حججاً نقلية كثيرة بل وحججاً عقلية تدل على أن ذلك الجيل لا يمكن آن يتكرر.

ولكن دعونا -قبل البدء في سرد بعض تلك الحجج- ننظر في الحجة التي ذكرها الكاتب الفاضل لتأييد رأيه. يقول الكاتب بعد الفقرة التي نقلناها آنفاً:

"هذه ظاهرة واضحة واقعة، ذات مدلول ينبغي الوقوف أمامه طويلاً، لعلنا نهتدي إلى سره".

إن قرآن هذه الدعوة بين أيدينا، وحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وهديه العملي، وسيرته الكريمة، كلها بين أيدينا كما كانت بين أيدي ذلك الجيل الأول، الذي لم يتكرر في التاريخ، ولم يغب إلا شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهل هذا هو السر؟

لو كان وجود شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حتمياً لقيام هذه الدعوة، وإيتائها ثمراتها، ما جعلها الله دعوة للناس كافة، وما جعلها آخر رسالة، وما وكِل إليها أمر الناس في الأرض، إلى آخر الزمان..

ولكن الله سبحانه تكفل بحفظ الذِّكْر، وعلم أن هذه الدعوة يمكن أن تقوم بعد رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ويمكن أن تؤتي ثمارها، فاختاره لجواره بعد ثلاثة وعشرين عاماً من الرسالة، وأبقى هذا الدين من بعده إلى آخر الزمان. وإذن فإن غيبة شخص رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها". (ص١٥)

إن مقدمات هذه الحجة لا تؤدي إلى نتيجتها. فالمقدمات باختصار هي: لو كان وجود شخص الرسول ﷺ حتمياً لقيام هذه الدعوة لما

جعلها الله دعوة للناس كافة، ولما جعلها آخر رسالة، ولما مات رسول الله ﷺ، والنتيجة الطبيعية لهذه المقدمات هي: وإذن فوجود شخص الرسول ﷺ ليس حتمياً لقيام هذه الدعوة، أو: وإذن فغيبة شخصيته -صلى الله عليه وسلم- لا تمنع من استمرار هذه الدعوة. وهذه حجة صحيحة، يوافقه كل مسلم على مقدماتها ونتائجها. لكن النتيجة التي انتهى إليها الكاتب الفاضل الكبير هي "وإذن فإن غيبة شخص رسول الله ﷺ لا تفسر تلك الظاهرة ولا تعللها" يعني ظاهرة عدم تكرار جيل الصحابة.

إن عدم ضرورة وجود شخص الرسول ﷺ لاستمرار الدعوة لا يعني عدم ضرورته لوجود جيل كجيل الصحابة، فالأمران مختلفان، اللهم إلا إذا قلنا إن الدعوة لا تقوم ولا تؤتي ثمارها إلا بوجود جيل كجيل الصحابة. ولكن هذا سيفضي بنا إلى القول بأن الدعوة نفسها توقفت منذ أن انتهى جيل الصحابة لأنه لم يأت بعده جيل مثله، وهو أمر لا يقول به الداعية الفاضل ولا أحد من المسلمين.

لو كان كتاب المعالم كتاباً عادياً لاكتفيت بهذا الرد. لكنني أعرف أن حجة الكاتب هذه تأثر بها كثير من الدعاة ولا سيما الشباب، فما أكثر ما سمعت؛ وقرأت تكراراً لها يكاد يكون بألفاظ الكاتب الفاضل. ولذلك فإن الأمر يستحق مزيداً من البيان. إن لدينا نصوصاً صحيحة تدل على أن وجود شخص الرسول ﷺ كان ضرورياً لتخريج ذلك الجيل، ونصوصاً تدل على أنه كان فعلاً جيلاً فريداً لا يتكرر. وإليكم شيئاً من هذه النصوص:

عن أنس ﷺ قال: **"لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أضاء منها كل شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كل شيء. قال وما نفضنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأيدي حتى أنكرنا قلوبنا".**[6]

هكذا كان شعور الصحابة بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم وغيبة شخصه، وكانوا يشعرون بشيء مثل هذا حين يغيبون عنه وهو حي. ففي حديث طويل "لحنظلة الأسدي" **قال: قلت: نافق حنظلة يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما ذاك؟ قلت يا رسول الله نكون عندك، تذكرنا بالنار والجنة، حتى كأنا نراها رأي عين، فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد، والضيعات،** نسينا كثيراً. **فقال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده أن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم، وفي طرقكم، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة" ثلاث مرات.**[7]

وهذا الذي شعر به حنظلة، وأيده أبو بكر رضي الله عنهما، شعور طبعي فإن الواحد منا يعرف من تجربته أنه يقرأ كلاماً فلا يتأثر به، فإذا

---

[6] رواه الإمام أحمد، وقال ابن كثير وهكذا الترمذي وابن ماجه جميعاً، وقال الترمذي هذا حديث صحيح غريب. قلت: وإسناده على شرط الصحيحين .. انظر السيرة النبوية لأبي الفداء إسماعيل بن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد ج ٤ ص ٥٤٤، مطبعة البابي الحلبي. القاهرة ١٣٨٥هـ – ١٩٦٦م.

[7] رواه مسلم كتاب التوبة – ١٢ – (٢٧٥٠) طبعة محمد فؤاد عبد الباقي.

سمعه من إنسان تأثر به. وقد يسمع كلاماً من إنسان ثم يسمعه نفسه من إنسان آخر، فإذا البون بين التأثيرين شاسع. فكيف بمؤمن صادق يسمع القرآن والحكمة من في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى الوحي يترل أمامه، ويعرف الحوادث والمناسبات التي نزلت فيها كثير من آيات الله وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم، ويرى هذا الرسول الذي كان خلقه القرآن، ويصحبه، ويخالطه، ويفهم عنه من غير ترجمان ولا حاجة إلى شروح وتفاسير؟ أفيكون حاله كحال إنسان يقرأ القرآن والسنة من الكتب أو يسمعها ممن الفرق بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أبعد من البون بين الأرض والسماء؟ إن هذا لا يكون أبداً. إن الفرق كبير وينبغي أن يكون كبيراً بين جيل شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم واقتدى به وتربى على يديه وجيل لم يره ولا رأى من رآه وإن كان الجميع مسلمين ودعاة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم. ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من**

صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلـــى الله عليـــه وســـلم؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم".[8]

وعن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال **"خير الناس قـــرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينـــه ويمينه شهادته".**[9]

وحقيقة أخرى ينبغي أن نتذكرها عن هذا الجيل: لقد اختـــارهم الله تعالى اختياراً ليكونوا أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم، فعن عبد الله بـن مسعود قال: **"إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد خير قلـوب العباد فاصطفاه لنفسه، فبعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلـب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلـــهم وزراء نبيـــه يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسناً، فهو عند الله حسن، ومـــا رآه المسلمون سيئاً فهو سيئ"**[10]

جيل الصحابة إذن جيل فريد لا يتكرر، ولكن هذه الحقيقة ينبغـي ألا تثبط هممنا أو تدعونا إلى الانصراف عن محاولة الاقتداء بهم، بل إنها ينبغـي أن تغرينا بهذه المحاولة. فنحن باعتبارنا أفراداً نعلم أننا لا نكـــاد نســـاوي

---

[8] رواه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، ورواه مســـلم في كتـــاب فضائل الصحابة.

[9] المصدر السابق وروى الحديثين مسلم كذلك في باب فضائل الصحابة.

[10] رواه الإمام أحمد عن ابن مسعود موقوفاً لكن مثل هذه الأحاديث يعدها العلمـــاء في حكـــم المرفوع لأن الصحابي لا يتكلم فيها برأيه.

شيئاً بالنسبة لمقام الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكننا مع ذلك نقتدي به ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. فكذلك ينبغي أن يكون حالنـــا -باعتبارنـــا جماعة- مع جيل الصحابة رضوان الله عليهم. علينا أن ندرس تاريخـــهم ونعرف أحوالهم، ثم نترسم خطاهم ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وكلمـــا كانت محاولتنا أنجح كانت النتائج أكبر في مجال الدعـــوة والتمكـــين في الأرض والاستعداد لقيادة البشرية.

علينا أن نركز على هذا الجانب الإيجابي من كلمات الداعية الشـــهيد فقد كانت معرفة قدر أصحاب رسول الله ﷺ من السمات البارزة لأئمـة أهل السنة والجماعة، وكان الاقتداء بهم -في سيرتهم، وفي فهمهم القـــرآن والسنة، وفي اجتهاداتهم- ديدن هؤلاء الأئمة الذين حفظوا هـــذا الديـــن بعلمهم وسيرتهم وجهادهم. فعلينا أن نستفيد من كلمات الأستاذ ســـيد ضرورةَ السير على هذا المنوال.

الأمة المسلمة ... هل انقطع وجودها ؟

إذا أخذنا كلمات المعالم على ظاهرها وحرفيتها فإن إجابته القاطعـــة عن هذا السؤال هي أن نعم. ولكن هذه الإجابة ليست صحيحة وهـــي بعد ليست متسقة مع كلمات أخرى في الكتاب نفسه.

يقول الكاتب الفاضل:

"وجود" الأمة المسلمة يعتبر قد انقطع منذ قرون كثيرة ... فالأمة المسلمة ليست "أرضاً" كان يعيش فيها الإسلام وليست "قوماً" كان أجدادهم في عصر من عصور التاريخ يعيشون بالنظام الإسلامي ... إنما "الأمة المسلمة" جماعة من البشر تنبثق حياتهم وتصوراتهم وأوضاعهم وأنظمتهم وقيمهم وموازينهم كلها من المنهج الإسلامي ... وهذه الأمة -بهذه المواصفات- قد انقطع وجودها منذ انقطاع الحكم بشريعة الله من فوق ظهر الأرض جميعاً(ص٨).

ولكن إذا كانت الأمة التي تحمل هذا الدين قد انقطع وجودها منذ قرون فإن دينها نفسه يكون قد انقطع وجوده منذ تلك القرون. والكاتب الفاضل يدرك هذه النتيجة اللازمة عن كلامه ويقبلها ويقررها إذ يقول:

"هذا هو المجتمع المسلم. المجتمع الذي تتمثل (فيه) العبودية لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم، كما تتمثل في شعائرهم وعباداتهم، وكما تتمثل في نظامهم الجماعي وتشريعاتهم ... وأيما جانب من هذه الجوانب تخلف عن الوجود فقد تخلف الإسلام نفسه عن الوجود. لتخلف ركنه الأول، وهو شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله (ص٩٥).

فالكاتب الفاضل يقرر في هذه الفقرة أن تخلف النظام الجماعي والتشريعات عن الوجود يعني تخلف الإسلام نفسه عن الوجود ويقرر في

الفقرة السابقة أن هذا النظام قد تخلف فعلاً عن الوجود والنتيجة هي أن الإسلام قد تخلف عن الوجود. وهي نتيجة نقطع بأنها ليست صحيحة.

إن الكاتب الفاضل يقرر أن الله تعالى قد تكفل بحفظ الكتاب والسنة ولكن ينبغي ألاّ ننسى أن هذا الحفظ ليس حفظاً متحفياً بمعنى أن تكون نصوص الكتاب والسنة مكتوبةٌ محفوظةٌ من التحريف، أو تكون موجودة في أذهان الناس يرددون كلماتها ولا يفقهون معانيها.

إن الحفظ يعني الحفظ من التحريف اللفظي، ويعني حفظ المعاني، ويعني حفظ العمل بتلك الكلمات وهذه المعاني.

فالقرآن ﴿ **آيات بينات في صدور اللذين أوتوا العلم** ﴾ (العنكبوت: ٤٩) والله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها، والتجديد معناه جعل ما يدين به الناس موافقاً للدين الذي أنزله الله.

والله تعالى لا يخلي هذا العالم بعد مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم من قائم بالحق. قال صلى الله عليه وسلم: "**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون**"[١١]

قال البخاري: هم أهل العلم. وقال شيخه علي بن المديني: هم أهل الحديث، وكذلك قال الإمام أحمد. والحديث يدل دلالة قاطعة على أنهم يجمعون بين العلم والعمل، فهم ظاهرون غالبون بالحق، لا يضرهم من

---

[١١] رواه البخاري ومسلم وبعض أهل السنن بروايات مختلفة عن عدد من أصحاب رسول الله ﷺ.

خذلهم، وهم كما جاء في بعض روايات الحديث **"لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة"**، فهم إذن لا يعلمون الحق فقط ولكن يعملون به ويدعون إليه ويقاتلون أعداء الله في سبيل الله، إعلاءً لكلمة الله. وكاتبنا الشهيد كان -فيما نحسب- من هذه الطائفة.

قال الإمام أحمد في مقدمة رسالته المشهورة في الرد على الجهمية والزنادقة:

"الحمد لله الذي جعل في زمان كل فترة من الرسل، بقايا من أهل العلم يدعون من ضلّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم"[١٢].

وإذا كان الإسلام محفوظاً بنصوصه، محفوظاً بمعانيه، محفوظاً في صورة فئة تقوم به، فإنه لم يغب عن الوجود ولن يغيب حتى قيام الساعة. وإذا كان هو محفوظاً بهذه الطريقة فإن الأمة التي تحمله -متمثلة في أعلى صورها في هذه الطائفة- فإنها أيضاً لم تغب عن الوجود ولا تغيب حتى قرب قيام الساعة.

---

[١٢] ص٨٥، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميرة ، دار اللواء ، الرياض، ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

قلت إن أخذ كلمات الكاتب تلك على ظاهرها وتفسيرها تفسيراً حرفياً يقودنا إلى نتيجة ليست صحيحة في نفسها، وليست متسقة مع ما يقوله الكاتب أو ما يلزم من قوله في أماكن أخرى من الكتاب. فهو يقول مثلاً:

"إن هذا المجتمع لا يقوم حتى تنشأ جماعة من الناس تقرر أن عبوديتها الكاملة لله وحده، وأنها لا تدين بالعبودية لغير الله ... لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصور، ولا تدين بالعبودية لغير الله في العبادات والشعائر، ولا تدين بالعبودية لغير الله في النظام والشرائع ... ثم تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلها على أساس هذه العبودية الخالصة، تنقي ضمائرها من الاعتقاد في ألوهية أحد غير الله -معه أو دونه- وتنقي شعائرها من التوجه بها لأحد غير الله -معه أو دونه- وتنقي شرائعها من التلقي عن أحد غير الله -معه أو دونه-.

وعندئذ، وعندئذ فقط، تكون هذه الجماعة مسلمة، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلماً كذلك ... فأما قبل أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله -على النحو الذي تقدم- فإنهم لا يكونون مسلمين .. وأما قبل أن ينظموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلماً ... (ص٩٦).

وأقول إن هذه الكلمات تجعل شرط وجود المسلمين هو أن يقرر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله بالمعنى الذي شرحه. وهذا الشرط -بحمد

الله- متوفر الآن، وظل متوفراً على مدى القرون في آلاف الألوف من المسلمين.

لكن الكاتب يفرق بين وجود المسلمين ووجود "المجتمع المسلم" إذ يجعل شرط الأخير أن ينظم الناس حياتهم بالفعل على أساس العبودية بالطريقة التي شرحها. وهذا اصطلاح يستحدثه الكاتب، ولا مشاحَّة فيه مادام عدم قيام هذا المجتمع المسلم لا يسلب عن أولئك الناس صفة الإسلام.

أقول لا مشاحة في هذا الاصطلاح ولا ضرر لولا أن بعض قراء المعالم -ولا سيما الشباب منهم- قد ضخموا مسألة المجتمع الإسلامي هذه وجعلوا قيامه شرطاً في اتصاف الناس بالإسلام، ويلزم من عدمه عدم اتصافهم به. وهذا كما نرى اعتقادٌ ليس له ما يسوغه من كلمات الكاتب.

ومما زاد الأمر خطورة أن صورةَ "المجتمع الإسلامي" في أذهان أصحاب هذا الرأي صورةٌ مثالية لا تكاد تنطبق إلا على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين.

إنه لمسلك حميد أن تتعلق همة الداعية بالصورة المثالية للإسلام، وألا يرضى لنفسه ولا لمجتمعه غيرها، وأن يظل طول عمره مجاهداً للاقتراب منها، ولكن هذا شيء، واعتبار تلك الصورة المثالية هي الصورة الوحيدة التي يلزم من عدم وجودها عدم وجود الإسلام أو المجتمع الإسلامي شيء آخر. إن المسلك الأول مسلك حميد لأنه يحض الداعية على الحركة

والمثابرة. أما المسلك الثاني فإنه وإن كان صاحبه يبدو أكثر حماساً إلا أنه يقود في النهاية إلى نظرة متشائمة. كيف لا يتشاءم من يعتبر وجود "المجتمع الإسلامي" قد انقطع منذ انتهاء الخلافة الراشدة؟ إن سؤالاً ميئساً سيظل يلح عليه: إذا كانت كل أجيال المسلمين بكل ما يعرف فيها من أئمة سامقين قد عجزت عن تحقيق "المجتمع الإسلامي" بعد انتهاء عهد الخلافة الراشدة، فمن أنت؟ ومن هؤلاء معك الذين يستطيعون أن يحققوا في القرن الخامس عشر الهجري ما عجزت عن تحقيقه أجيال المسلمين طوال تلك القرون؟

ولكن إذا كانت أجيال المسلمين قد عجزت عن بلوغ تلك القمة السامقة التي صعدت إليها الخلافة الراشدة فإنها لم تعجز عن تحقيق الكثير من مقومات المجتمع الإسلامي: سلامة في الاعتقاد، واستقامة في السلوك، ومحافظة على العبادات، وإيتاء للزكوات وطلباً للعلم، ونظراً للدعوة، وإقامة للحدود، وجهاداً للعدو، إلى غير ذلك من الخير الذي جاء به الإسلام، وإن كان خيراً قد شابه عند التطبيق على مستوى الدولة دَخَنٌ يكثر حيناً ويقل حيناً.

إن من عدم الإنصاف للأمة المسلمة -بل لأية أمة- أن نحكم عليها بسلبيات بعض حكامها وأخطائهم، وأن ننسى الجوانب الإيجابية والمشرقة في سيرة بعض هؤلاء الحكام، وننسى معها جهود سائر قادة الأمة وعامتها.

إننا لا نحكم على الفرد بالكفر إذا هو لم يكن من السابقين الذين ﴿ **كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون** ﴾ (سورة الذاريات:١٧-١٨)، ولا نحكم عليه بالكفر إذا هو لم يؤد كل ما يجب عليه، ولا نحكم عليه بالكفر إذا هو ارتكب بعض ما حرم الله عليه. إننا لا نحكم عليه بالخروج من الملة إلا إذا أتى بما ينقض التوحيد من قول أو عمل.

وكذلك ينبغي أن تكون نظرتنا للمجتمعات الإسلامية والحكومات الإسلامية، فمنها مجتمعات سابقة على رأسها خلافة راشدة، ومنها أنظمة لا تطبق كل ما يجب عليها، ومنها أنظمة ترتكب بعض ما نهيت عنه، ولكنها كلها إسلامية ما دامت تقبل البيعة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتعلن استمساكها بذلك، ولا تأتي بما ينقض هذه البيعة. ومما ينقضها أن تصدر الدولة تشريعات تحل ما حرم الله. فهنالك فرق بين الخطأ في التطبيق، بل بين الظلم والجور فيه، وبين أن تشرّع الدولة تشريعات مخالفة لأمر الله عن علم بذلك. ولهذا وردت أحاديث كثيرة في الصبر على جور الأئمة وأثرتهم على بعض رعاياهم.

ولكن ينبغي إنصافاً لأصحاب هذا التطرف الذي ننتقده أن نذكر أنه ربما كان رد فعل لتطرف آخر هابط، مثبط، مستسلم لكل واقع، راض بالدون من كل وضع.

إن الموقف الصحيح والواقعي العملي هو وسط بين هذين التطرفين، يدرك صاحبه أن الخير درجات بعضها فوق بعض، وأن الشر درجات بعضها دون بعض. فبينما هو يعمل لتحقيق الدرجة العليا من الخير، فإنه

يعترف بما دون ذلك من درجات الخير، ويشجعها ويعين عليها، ويعتبرها مرحلة من مراحل طريقه نحو القمة التي يسعى للصعود بالمجتمع إليها. كما أنه يفرق بين درجات الشر، فيختار منها -عند الاضطرار- ما كان أخف ضرراً. أما الذي يقول إما الخير كله وإلا فلا شيء، فإنه سيظل في كثير من أحواله متحمساً لساناً، عديم التأثير فعلاً، يصدر الأحكام على الأوضاع والأشخاص والتحركات ولا يغير من واقعها شيئاً.

ثالثاً:

التنظيمات الإسلاميَّة المعاصرة

نظرات ناقدة

التنظيمات الإسلاميَّة المعاصرة

نظرات ناقدة

أصل هذا المقال محاضرة ألقيتها بقاعة الشارقة بجامعة الخرطوم بالسودان، في شهر الله المحرم من عام ١٤١٢هـ (يوليو ١٩٩١م) بدعوة من جماعة الفكر الإسلامي، ثم عدَّلت فيها تعديلات يسيرة استفدت بعضها من المناقشة التي أعقبت المحاضرة، وبعضها من تعليقات الإخوة الذين قرؤوها مكتوبة. وموضوع تلك المحاضرة كان: التنظيمات الإسلامية. والمقصود بالتنظيم هو الطريقة التي ينتظم بها الأفراد في جماعة. هذه الطريقة هي التي تحدد علاقة هؤلاء الأفراد بعضهم ببعض، وعلاقتهم بقيادتهم، وعلاقتهم بالأفراد والجماعات الأخرى، ونوع المؤسسات التي تعتمد عليها الجماعة في اتخاذ قراراتها، وواجبات الأفراد حيالها، وهكذا لم يكن القصد من المحاضرة -ووقتها لا يزيد عن الساعة- تقويم الحركات الإسلامية المعاصرة تقويماً شاملاً، كما قد يتبادر إلى بعض الأذهان من عنوانها، وإنما كان القصد -كما بينت في بداية المحاضرة نفسها- هو التنبيه إلى بعض التصورات غير الإسلامية التي أخذت بها كثير من الحركات الإسلامية في جانبها التنظيمي البحت، وكيف أن هذه التصورات غير الإسلامية أدت إلى نتائج تتنافى مع كثير من القيم الإسلامية التي إنما نشأت تلك الحركات لتثبيتها والدعوة إليها والدفاع عنها.

واشنطن ١٤١٢/٦/١٣هـ

١٩٩١/١٢/١٩م

مقدمة

المقصود بالتنظيمات الإسلامية في هذا الحديث تنظيمات الحركات الإسلامية السياسية. والنظرة الناقدة ليست موجهة إلى فكرة التنظيم من حيث هي وإنما إلى الأشكال والقواعد والمبادئ التنظيمية التي اتخذتها هذه الجماعات. والمرجو أن يكون نقدنا نقداً مسدداً لها، يقيم عوجها، ويصلح خللها ويزيدها بالحق قوة إلى قوتها.

والأفكار التي سأضعها بين أيديكم لتروا فيها رأيكم أفكار ظل معظمها دائراً بخلدي منذ أكثر من عشرين عاماً، وظللت منذ ذلك الحين أذكرها مجزأة في مناسبات متفرقة وفي دوائر ضيقة، ولكن حين تكرم الأخ الدكتور التيجاني عبد القادر فدعاني باسم جماعة الفكر الإسلامي للتشرف بإلقاء هذه المحاضرة، آثرت أن أجهر فيها بما كنت أخافت به وأن أجمع لها شتات ما كنت قد نثرته، وأرجو أن يهيئ الله تسطيرها بعد الاستفادة من آرائكم ونظراتكم.

وقد رأيت أن أبادر بالكلام بعد الصمت :

أ- لأنني من أبناء جيل بدأ الموت يتخطفهم، فأريد أن أبوح بما في نفسي بداراً أن يدركني ما أدرك النحوي الذي قال في نزعه الأخير "أموت وفي نفسي شيء من حتى".

ب- ولأن الحركة الإسلامية حتى بالمعنى الضيق الذي حددته في بداية هذا الحديث لم تعد أمراً خاصاً بفئة من الناس، فقد كبرت واتسعت وانتشرت آثارها، فصار من حق كل مسلم أن يشارك في نقدها وتوجيهها.

ج- ولأنني أريد أن أؤكد بأن الحركة الإسلامية جهد بشري فيه الخطا وفيه الصواب وإن كان نفعها أكبر من ضررها.

إنها ليست كما يريد أن يصورها بعضنا صورة مثالية لتطبيق المبادئ الإسلامية، ولا هي كلها سلسلة من الأعمال الموفقة، بل فيها كثير من القصور وكثير من الإخفاق.

د- ولأنني أرجو أن أسن سنة حسنة يتبعها أبناء الحركة ومفكروها، فيحدثوا الناس بأمانة عن مواطن ضعفهم وإخفاقهم كما أكثروا الحديث إليهم عن إنجازاتهم، فنحن نؤمن بدينٍ بيانُ الحق فيه أمانة وكتمانه خيانة.

﴿ وإذ أخذ الله ميثاق اللذين أوتوا الكتاب لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه ﴾ (آل عمران:١٨٧)

لقد نشأت الحركات الإسلامية التي نتحدث عن تنظيماتها في ظروف تقاسمت البلاد الإسلامية فيها أحزاب كانت في أغلبها ذات صفات غربية ليبرالية أو صفة شرقية اشتراكية أو شيوعية. فلما أراد الإسلاميون أن يعملوا عملاً جماعياً للوصول إلى هدف إعادة الدولة الإسلامية لم يكن أمامهم من أمثلة يحتذونها إلا هذه الهياكل التنظيمية الحزبية، فتبنوها كما

هي مع بعض التعديلات الشكلية الإسمية. فاستبدل بعضهم بكلمة حزب كلمة جماعة، وبكلمة الديمقراطية كلمة الشورى وبالسكرتير العام الأمين العام، وهكذا.

أما المسميات التنظيمية التي تشير إليها تلك الأسماء فهي هي الموجودة في الأحزاب الأخرى، فكان هذا التقليد بداية الانحراف.

أنا لا أقول : أنه يحرم على الناس أن يعملوا عملاً جماعياً منظماً، ولا أقول: إنه لا يجوز لهم أن يستفيدوا من تجارب الآخرين وإن كانوا كفلوا، لكنني أزعم أن هنالك علاقة وثيقة بين الطريقة التي ينتظم بها الأفراد في مؤسسة ما، وبين الهدف الذي تسعى لتحقيقه تلك المؤسسة، فالتنظيم العسكري مثلاً لا يصلح لمؤسسة علمية، فالأول ينبغي أن يميل نحو الانضباط، ويغلب عليه مبدأ الطاعة، والثاني ينبغي أن يميل نحو السعة ويغلب عليه مبدأ الحرية الفردية، كذلك الأفراد الذين يتجمعون للتعاون على عبادة الله وإعلاء كلمته والجهاد في سبيله، على هدى من كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، لا يمكن أن تكون العلاقات التنظيمية بينهم كتلك التي تكون بين أفراد ينكرون حتى وجود الخالق، ويتعاونون على الإثم والعدوان، ويسعون لتأسيس دولة ماركسية، فإذا أخذ أولئك بالقواعد التنظيمية لهؤلاء فلا بد أن يحدث هذا التنظيم المتنافر مع القيم الإسلامية خللاً في عمل الجماعة التي تأخذ به.

وبينما اتخذ الإسلاميون السياسيون لجماعتهم تنظيماً ذا سمات غير إسلامية، رفض كثير من المتدينين بل من العلماء فكرة التجمع نفسها فعدُّوا تكوين الجماعات والانتماء إليها تحزيباً وتفريقاً للمسلمين.

والموقف الوسط الصحيح بين هذين الطرفين أن التجمع أمر مشروع بل قد يكون فرض كفاية في بعض الظروف، وذلك أن الله تعالى أمرنا أن نكون جماعة، وأن نطيع أولي الأمر منا الذين يحكموننا بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمرنا الرسول الكريم أن نطيع أمثال هؤلاء الرؤساء وقال: **"من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية"**. (رواه مسلم).

فإذا وجدنا أنفسنا في زمان تُحكم فيه بلادنا بغير ما أنزل الله، وتتكاثر فيه أحزاب لا تعلن التزامها بالعمل لإعلاء كلمة الله، كان من واجبنا أن نعمل لتحقيق الدولة الإسلامية، لكن العمل لها لا يمكن أن يكون فردياً، بل لا بد أن يكون جماعياً، فالجماعة التي ينتظم أفرادها للعمل لتحقيق جماعة المسلمين ودولتهم يكونون نواة لجماعة المسلمين المنشودة.

فالقول بأن تكوين الجماعات في مثل هذه الظروف تفريق للمسلمين قول مجانب للصواب، لأن التفريق إنما يكون للمجتمعين، أما إذا كان المسلمون متفرقين أفراداً وأحزاباً فإن نظمهم في سلك جماعة تعمل لإعلاء كلمة الله هو تجميع لا تفريق.

لا أريد أن أدخل في تفاصيل المسوغات الشرعية لتكوين الجماعات الإسلامية فقد كتبت فيه قبل ذلك كما كتب فيه غيري.

وإنما ذكرت ما ذكرت هنا فقط لأكرر بأنني لست معترضاً على مبدأ تكوين الجماعات وإنما أوجه النقد إلى بعض الأشكال والقواعد والتقاليد التي اتسمت بها تنظيمات تلك الجماعات.

وإن حديثنا إنما هو عن السمات الجاهلية في تلك التنظيمات الإسلامية، ولا يستغربن هذا أحد؛ ألم يقل الرسول صلى الله عليه وسلم لصاحب من أجل أصحابه: "**إنك امرؤ فيك جاهلية**"؟ وقد قال عنه في مناسبة أخرى: "**ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبي ذر**".

والسمات الجاهلية التي أناقشها في هذه المحاضرة هي:

١- إلزام الفرد برأي الأغلبية.

٢- الشورى الزائفة.

٣- تكريس السلطة في يد الفرد.

٤- الطاعة الشركية.

٥- العصبية الجاهلية.

١- إلزام الفرد برأي الأغلبية

هذه القاعدة التنظيمية تقول: إنه يحق للعضو أن يبدي رأيه وأن يعترض مادام الموضوع ما يزال في طور النقاش، فإذا ما نوقش وصوت عليه، فعلى العضو بعد ذلك أن يدافع عن الرأي الذي أقرته الأغلبية وإن كان هو الرأي الذي كان يراه خطأ.

والشيوعيون يسمون هذا بالديموقراطية المركزية، ويعدون هذه القرارات جزءاً من الشيوعية، على الأقل بالنسبة للحزب الذي قررها، فمخالفتها مخالفة للشيوعية التي اجتمعوا عليها، ولذلك لا يسمح بها البتة.

وقد أرجع أحد الكتاب الغربيين أصول هذا الالتزام الشيوعي بالديمقراطية المركزية إلى الكاثوليكية، فهي صورة علمانية للاعتقاد في عصمة البابا وعد قراراته جزءاً من النصرانية، وأما الإسلام فقد قال الله تعالى:

﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً** ﴾ (المائدة:٣)

فلا مجال فيه إذن لزيادة أو نقصان. ولذلك لا يجوز للمرء المسلم أن يعتقد إلا في صواب ما دلّ الكتاب والسنة على صوابه من أمور الدين، أو ما دلّ العقل والحس على صوابه من أمور الدنيا، وإنّ قرارات البشر أقلية

كانوا أم أغلبية ليست مصدراً من مصادر الحقيقة. نعم إنّ الإجماع مصدر، لكنه مصدر ثانوي وليس مصدراً أصلياً، فهو مصدر لدلالته على أن ما أجمع عليه المسلمون لا بد أن يكون له أصل في الكتاب والسنة، فإن الأمة لا تجتمع على ضلالة، فمخالفتها فيما أجمعت عليه ضلال.

﴿ ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً ﴾ (النساء:١١٥)

ومن غرائب الأمور أن بعض المنتمين إلى التنظيمات الإسلامية يشككون في حجية الإجماع، ويغالون في الأخذ بقاعدة الدفاع عن رأي الأغلبية وإن رآه العضو خطأً.

لكن واجب المسلم أن لا يدافع إلا عمَّا يقتنع أنه الحق لقيام الدليل النقلي أو العقلي أو الحسي على صوابه أو ما يرى أنه الحق لرجحان أدلته عنده.

"ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو يذكر بعظيم". (المسند،ج٣/ص٥)

إن الدفاع عما يعتقد المسلم أو ما يرى بطلانه هو الكذب بعينه، والتدين والكذب لا يجتمعان، نعم إن المسلم يجوز له في بعض الظروف أن لا يجهر بما يعتقد أو يرى أنه الحق إذا كان الجهر به سيؤدي في تقديره إلى ضرر أكثر من السكوت. أما أن ينتصر لما يعتقد أو يرى بطلانه فلا يجوز إلا في حالات الاضطرار.

﴿ فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ﴾ (البقرة:١٧٣)

﴿ إنما يفتري الكذب اللذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ۞ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ (النحل: ١٠٥-١٠٦)

لكن الأمر مختلف بالنسبة للعمل إذ يجوز للمسلم بل قد يجب عليه أن يعمل بما لا يراه صواباً من الأمور الاجتهادية طاعة لمن هو في موضع الإمارة والمسئولية، بل يجوز له أن يعمل بعكس ما يعتقد صوابه من المسائل الفرعية تجنباً للخلاف وإيثاراً للاجتماع.

أكرر أن هناك فرقاً مهماً بين القول والعمل في هذا الموضوع الذي نتحدث فيه، إن المستنكر هو أن تدافع عن شيء تراه أنت باطلاً، سواء كان مستند رأيك هذا النص أو الاجتهاد، وسواء كان الأمر أمر دين أو أمر دنيا.

وأما العمل فلا يجوز للإنسان أن يفعل ما يراه باطلاً طاعة لعالم أو حاكم أو رئيس، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. لكن يجوز له أن ينفذ ما لا يراه صواباً من الأمور الاجتهادية.

إن من مضار قاعدة الإلزام بالدفاع عن رأي التنظيم أنها تحول الخلاف بين المسلمين من خلاف فردي -وهو أمر عادي كان يقع حتى بين جلة أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم- إلى خلاف جماعي يكون سبباً في تفريق المسلمين وإضعافهم، وذلك أنه إذا كانت هنالك

جماعتان عرض عليهما موضوع واحد ففاز في الأولى الرأي القائل بقبولـــه مثلاً، وفاز في الثانية الرأي القائل برفضه، صار الخلاف بين الجماعتين، أما لو أن الأعضاء في كل من الجماعتين أبيح لهم إبداء آرائهم خارج نطـــاق التنظيم لقلت حدة الخلاف. وقد حاولت عبثاً منذ أكثر من عشرين عامـــاً أن أقنع إخواني في الجماعات التي عملت فيها أو التي تشرفت بمعرفة بعض قادتها أن يُعطى الأعضاء حرية إعلان خلافاتهم الفردية ومناقشتها حـــتى في منشورات الجماعة.

٢- الشـورى الزائفـة

يقسم العلماء الشورى إلى:

- **شورى معلمة**: يستمع فيها المستشير إلى آراء الناس ثم يختار منـها ما يراه صواباً.
- **وشورى ملزمة**: يلتزم فيها المستشير بما توصلـت إليـه أغلبيـة المستشارين.

لكنني أريد أن أضيف نوعاً ثالثاً هو الشورى الزائفة.

إن الشورى معلمة كانت أو ملزمة هي محاولة للوصول إلى الحقيقـة، سواء كانت حقيقة دينية نقلية أو دنيوية حسية أو عقلية، وهي في أصلـها من شار العسل إذا استخرجه من الخلية، فهي وسيلة لاستخلاص الحقيقـة من المستشارين كما يستخلص العسل من الخلية.

ولكي يصل الناس إلى الحقيقة في أمر من الأمور فإن عليهم:

أولاً: استشارة أصحاب الخبرة به، وهذا ما نفعله في حياتنا اليوميـة حين نريد أن نتزوج أو نتاجر أو نتوظف.

وكذلك إذا أرادت الجماعة أن تقيم مجتمعاً مسلماً فينبغي أن يتكـون مجلس شوراها من أحسن الناس فيها علماً وعبادة وخلقاً وبصراً بـالأمور.

قالوا: إن عمر رضي الله عنه كان من أكثر الناس استشارة، وقالوا: كـــان القـــراء أصحاب مجلس عمر. والقراء في زمان عمر لم يكونوا كقرائنا مرتلين فقط لكتاب الله، ولكن كانوا أعلم الناس به، ولولا ذلك لما كان في استشارتهم من فائدة.

ثانياً: إعطاء المستشارين الوقت الكافي لفهم المشكلة، وللتعبير عـــن رأيهم فيها، وللإدلاء بحججهم المؤيدة أو المعارضة للأمر المطروح، فـــإذا أتى بعضهم بدليل نقلي أو عقلي قاطع أو راجـــح، فـــلا داعـــي بعـــده للتصويت، لأن الغاية المرجوة قد تحققت.

ثالثاً: إعطاء المعارضين للرأي المقترح فرصة أكبر لنقد الاقتراح وبيـــان خطئه.

وأقرب جماعة لهذا المثال من الجماعات التي عرفتها هـــي الجماعـــة الإسلامية في باكستان في عهد الأستاذ المودودي بحسب ما وصفـــها لي هو، فقد قال لي حين قلت له ما قلت لكم الليلة من أن إلـــزام الأقليـــة بالدفاع عن رأي الأغلبية أمر لا أجد له مسوغاً لا في نصوص الإسلام ولا في واقعه التاريخي، قال كلاماً فحواه أنهم يختارون لمجلس شوراهم أكـــثر الناس علماً في الجماعة، وأنهم لا يصدرون قرارات كثيرة، بل يصـــدرون قراراتهم في المسائل القليلة التي ينبني عليها عمل للجماعة، وأنه لا يكـــاد يذكر أنهم اتخذوا قراراً بمجرد رأي الأغلبية، بل كانوا في كثير من الأحيان

يؤجلون اتخاذ القرار ولو كان المعترض عليه شخصاً واحداً حتى يراجعوا الأمر، فإما أقنعهم أو أقنعوه.

وأذكر أنني قلت له: إن كل هذا شيء حسن جداً، ولكن ما بال الشخص الذي ليس عضواً في هذا المجلس والذي أعطاه الله شيئاً من العلم أو الرأي يلزم بالقول برأي لا يراه صواباً؟ وأذكر أن الشيخ الفاضل رحمه الله قال لي: إذا لم نفعل هذا صار الأمر فوضى.

لكنني عدت فقلت له: كلا، إنما يبدو هذا الآن كذلك لأننا تبنينا هذه القاعدة، فمخالفتها من أحد من الأفراد تشعر الناس في داخل الجماعة وخارجها أن هذا المخالف متمرد، أو أنه منشق عن الجماعة، أما لو أننا بيَّنّا لأعضاء الجماعة ولسائر الناس أننا لا نلتزم بهذه القاعدة، وأن أفراد جماعتنا ليسوا ملزمين بالدفاع عن رأي لا يرونه صوباً، فإن مثل هذه الممارسة لن ينظر إليها على أنها تشي بانشقاق في الجماعة.

وقد عرفت جماعات إسلامية أخرى -بل عملت فيها- ظلت تزداد مع الأيام بعداً عن تلك الصورة التي أدعو إليه، حتى صارت مثالاً لما أسميته بالشورى الزائفة.

إذا كنت زعيماً إسلامياً وأردت أن تخدع جماعتك باسم الشورى فهذه نصيحتي لك: اجعل عدد الأعضاء المجتمعين كبيراً جداً، واجتهد في أن يكون معظمهم من المُسَلِّمين بما تقول، وأقلل عدد المرات التي يجتمعون فيها في العام إلى الحد الأدنى، وأقلل ساعات اجتماعهم، واتصل بمن تستطيع منهم قبل الاجتماع لتحملهم على موافقة الرأي الذي ستطرحه

عليهم، واتفق مع رئيس المجلس ليعطيك أكبر عدد من الفرص لتُفَصِّل في رأيك ولتدافع عنه كلما انتقده أحد، وأعط فرص الحديث في الاجتماع للمؤيدين ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، فإذا فاز الاقتراح كما هو بالأغلبية، فأعلن على الملأ أنه القرار الذي توصل إليه مجلس الشورى ولذلك وجب على الأعضاء الالتزام به.

حضرت اجتماعاً لجماعة من الجماعات الإسلامية كان صورة مقاربة لهذا الذي ذكرت، ولقد عرض فيه على ما يقرب من خمسمائة منهم موضوع خطير كتب فيه أكثر من خمسين صفحة، وأعطوا أقل من ثلاث ساعات لمناقشته فكانت النتيجة أن أجازوه كما هو لم يحذفوا منه حرفاً واحداً.

وحضرت اجتماعاً آخر مماثلاً لذلك الاجتماع، فكان القرار الذي توصلت إليه الأغلبية بعد حوالي ثلاث ساعات من النقاش هو أن تتخذ القيادة الموقف الذي تراه مناسباً! فقلت لبعض من كان بجانبي هبنا -ليت شعري- لم نجتمع و لم نناقش، فهل ترون أن القيادة كانت ستتخذ الموقف الذي لا تراه هي مناسباً؟

لقد أُفرِغت الشورى إذن من محتواها الإسلامي، وصار الغرض من تكوين مجالس الشورى ومن اجتماعاتها هو مجرد إعطاء الشرعية للقرارات التي تتخذها القيادة، وهذا هو الذي تفعله باسم الديموقراطية كل الحكومات الدكتاتورية في العالم الثالث، فالمرشح للرئاسة واحد، ونتيجة التصويت 99.9%، والقرارات تفوز بالإجماع، وكلمات الرئيس وثائق من

وثائق المؤتمر ...إلخ، وكما أنَّ هؤلاء زيفوا الديمقراطية، فقد زيف أولئك الشورى واتخذوا لتزييفها الوسائل نفسها التي استعملها هؤلاء.

وإخواننا هؤلاء المزيفون للشورى هم من أكثر خلق الله حديثاً عن بسطها وتوسيع نطاقها، والدعوة إلى إلزاميتها والفخر على غيرهم من التنظيمات بمراعاتها وتطبيقها.

٣- تكريس السلطة في يد الفرد

إن الرئيس سواء كان رئيس دولة أو جماعة -صغيرة كانت أو كبيرة- ينبغي أن لا يكون مجرد دمية تحركها المجالس التي يترأسها، فالرئيس لا يكون رئيساً حقاً، والدولة أو الجماعة لا تؤدي عملها بجدارة إذا كان رئيسها من النوع الذي يقول: "I am your leader, show me the way" "أنا قائدكم، دلوني على الطريق" بل الرئيس الحق ينبغي أن تكون له سلطات وحقوق ليست لغيره من أفراد الجماعة، وينبغي أن يكون صاحب مبادرة ورأي، وإلا فلا يصلح أن يكون قائداً.

لكن أن تكون له سلطات ليست لغيره من الأفراد شيء، وأن تجتمع السلطات كلها أو معظمها في يده شيء آخر، إن جمع السلطات في يد القائد له مضار لا تكاد تحصى. منها:

١- بما أن كل ابن آدم خطّاء، وبما أن الإنسان ظلوم جهول، فإن الجماعة التي يحكمها فرد واحد ستستفيد لا محالة من آرائه الصائبة ومواقفه الصحيحة، لكنها ستعاني من أخطائه وجهالاته وأهوائه وحزازاته الشخصية، في علاقاتها الداخلية، وفي الصلات بينها وبين غيرها من الجماعات والدول.

٢- إن هيمنة الفرد في الجماعة تقتل روح المبادرة والأصالة في أفرادها، سيما الناشئون منهم، وتغلق الطريق أمام بروز القيادات فيهم.

٣- تقلل من اعتنائها بفكرها ودساتيرها ومؤسساتها، وتستعيض عن ذلك كله بأقوال الرئيس القائد وتوجيهاته.

٤- تفسد الفرد الحاكم نفسه لأنها تطغيه وتغريه بالمضي في طريق الاستكبار والتعالي على الناس، وإذا ما حدث له ذلك أو كان فيه أصلاً ثم أعانته الجماعة عليه، كان أشد الناس بغضاً إليه من شاركه في جذب أنظار الناس إليه، بأية صفة من الصفات التي يعجب بها البشر، ولذلك فإنه يحرص أشد الحرص على إبعاد أمثال هؤلاء، وتقريب الشخصيات التي ترضى لنفسها بالقيام بمهمة الخادم المطيع الذي يرضى بالإهانة والتقريع، ولا تتحرك شفتاه إلا باسم السيد الرئيس أو الشيخ أو الأستاذ أو الرفيق.

ذكر الكاتب اليوغسلافي M. Djilas في كتابه Conversations with Stalin أي: "محادثات مع ستالين"، أن ستالين لم يكن يعين في المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي شخصاً أطول قامةً منه، قارن هذا بالرجال الذين كانوا حول النبي صلى الله عليه وسلم والرجال الذين كانوا حول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ﷺ وغيرهم من قادة المسلمين الأقوياء المخلصين.

٥- تفسد كثيراً من أعضاء الجماعة، لأنها تروضهم على الطاعة العمياء والخنوع والخضوع، بل الاستعداد لارتكاب كبائر الكذب والغش والخداع وغيرها، مادام ذلك مما يُرضي القائد ويُرضي التنظيم.

٦- تجعل بعض المسئولين تحته يستنون بسنته في معاملتهم لمن دونهم من أعضاء التنظيم. كان الكاتب الأمريكي Howard Fast شيوعياً، فترك الشيوعية وكتب في نقدها كتاباً أسماه The Naked God، أي المعبود العريان، ذكر فيه أن ستالين لم يكن فرداً يحكم روسيا فحسب، لكنه كان ظاهرة عالمية في الأحزاب الشيوعية كلها، بما في ذلك الحزب الشيوعي الأمريكي، وذكر أمثلة غريبة للطريقة المستبدة المُذِلّة التي كان رئيس الحزب الأمريكي يعامل بها الأعضاء بما فيهم فاست نفسه. قرأت هذا الكتاب عندما كنت طالباً بالجامعة، وذكرت ما جاء فيه لبعض زملائنا الشيوعيين. وكان ذلك بعد زوال ستالين، فأيّد ما قال فاست وأضاف "كنا في ذلك الوقت (نشلت الزملاء)". تصوروا طالباً بالجامعة يرضى بأن يركله طالب مثله لأنه رئيسه في فرع الحزب بتلك المؤسسة!

لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد "التشليت" هذا، إلا ما كان من أتباع محمود محمد طه الذين غلوا في طاعة صاحبهم حتى عبدوه من دون الله، وهو حال أسوأ من ذُلّ الركل بالأقدام، لكن عزاءنا أن تلك رغم اسمها لم تكن جماعة مسلمة.

وعلى ذكر محمود نذكر أنه كان في مرحلة من مراحل دعواه التي تسلط بها على رقاب بعض الناس زعم أنه "وصل"، وأنه بذلك لم يعد مكلفاً بما يكلف به غير الواصلين من أعمال الصلاة والصيام والحج وغيرها.

ويبدو أن أحد الأتباع كان طموحاً فقال لهم ذات يوم: "أحب أن أزف لكم البشرى بأني قد وصلت ليلة أمس" فلما اعترض بقية الأتباع على دعواه أفحمهم بقوله "هل وصلتم أنتم؟" قالوا: لا. قال: "إذاً لا تناقشوني لأن هذه درجة لا تعرفون عنها شيئاً." فتركوا أمر مناقشته للواصل الأول، فكانت النتيجة أن فصله من الحزب لأن الحزب لا يتحمل واصلين، كما أن الزريبة لا تتحمل ثورين كما يقول المثل السوداني.

قلت: إنني لا أعرف جماعة إسلامية وصل الأمر فيها إلى حد الرضى بالركل والضرب، لكنني أعرف جماعات رضيت لنفسها باختيار منها، وبإغراء من بعض زعمائها، أن تنتقل رويداً رويداً من مبدأ المشاركة في اتخاذ القرار وجعل الأمر شورى بين أعضائها، إلى تكريس السلطة في يد القائد، وتفويضه في اتخاذ كل القرارات أو جلها.

لقد تطور الهيكل التنظيمي في دستور تلك الجماعة على النحو التالي:

المرحلة الأولى: ينتخب أعضاء الجماعة في كل بلد ممثلين لهم للمؤتمر العام للجماعة، فينتخب المؤتمر مجلس الجماعة التشريعي، فينتخب المجلس المكتب التنفيذي، فينتخب المكتب رئيساً له.

المرحلة الثانية: ينتخب مجلس الشورى رئيساً للجماعة ويعين الرئيس أعضاء مكتبه بموافقة المجلس.

المرحلة الثالثة: ينتخب المؤتمر مجلس الشورى، وينتخب رئيساً للجماعة. يعين رئيس الجماعة أعضاء مكتبه بموافقة مجلس الشورى. يكون

للجماعة مكتبين منفصلين: مكتب سياسي ومكتب إداري، ويرأس كلاً منهما الأمين العام.

كان المكتب التنفيذي في المرحلة الأولى يتكون من الشخصيات القائدة للجماعة التي تستطيع أن تخالف رئيسها بل أن تعزله. و لم يتحمل بعض الرؤساء هذه الخلافات فأغرى الجماعة بأن تغير دستورها لتمنحه حق اختيار من يناسبه من أعضاء الجماعة، حتى يكون هناك انسجام في المكتب! فأعطوه هذا الحق؛ فبدأ عدد الأعضاء ذوي المقدرات القيادية يتقلص مع الزمن. كلما رأى الرئيس شخصاً بدأت قامته الفكرية أو التجريبية تطول، أو بدأت ثقته بنفسه تزداد، أقصاه وأتى بمن هو أقصر منه قامةً وأسلس قياداً، و لم يرض الرئيس أن يشاركه في القيادة حتى هؤلاء الذين يعينهم، فجعل المكتب مكتبين حتى يكون هو وحده الذي له حق الجمع بين المشاركة في صنع القرارات السياسية وصنع القرارات الإدارية والمالية.

لم أستطع في الفرصة الضيقة التي أعددت فيها هذه المحاضرة الحصول على دساتير تلك الجماعة حتى أطلعكم عليها، لكنني اعتمدت فيما قلت على ذاكرتي وذاكرات بعض من كان فيها، لكن هناك جماعة لها دستور منشور يعطيكم فكرة عما أقول.

عندما تكونت الجبهة الإسلامية القومية التي أعلن الآن حلها، أصدرت دستوراً قرأته وأنا خارج البلاد، فعجبت منه أشد العجب. فلما زارنا بعض قادتها عبرت لهم عن رأيي، فقال لي: إنه لم يقرأه و لم يتأمله إلا

بعد أن انفض المؤتمر، وقال: إنه عندما قرأه بعد ذلك قال لبعض زملائه: أنياماً كُنَّا أم يقظى حين أجزنا هذا الدستور؟ أقرأ عليكم بعض ما جاء في هذا الدستور مما له تعلق بالتنظيم الذي هو موضوع هذه المحاضرة.

المادة ٣٧: يتكون هيكل التنظيم المركزي للجبهة من الأجهزة التالية:

١- المؤتمر العام

٢- هيئة الشورى العامة

٣- القيادة التنفيذية

٤- الأمين العام

المادة ٣٩: ينعقد المؤتمر العام مرة كل سنتين أو كلما دعته هيئة الشورى العامة.

المادة ٤٠: تكون للمؤتمر السلطة العليا في الجبهة ويقر دستورها وسياستها ويوجه نظامها وعملها... الخ

تعليق: تصوروا مؤتمراً هذه مهمته يجتمع مرة واحدة في كل سنتين ولا يجتمع في الواقع لأكثر من ثلاث أيام، وأعضاؤه يزيدون عن الألف فأنى له أن يناقش نقاشاً حقيقياً أي أمر ذي بال؟

المادة ٤١: تتكون هيئة الشورى العامة من ثلاثمائة عضو من بينهم الأمين العام.

المادة ٤٢: تنعقد اجتماعات هيئة الشورى العامة مرة كل ثلاثة أشهر أو بدعوة من القيادة التنفيذية.

المادة ٤٣: تكون هيئة الشورى العامة السلطة العليا في قيادة وتوجيه الجبهة بعد المؤتمر العام، ولها صلاحية إجازة خطط الجبهة وسياستها ولوائحها.

تتولى هيئة الشورى العامة انتخاب القيادة التنفيذية.

تعليق: هيئة عدد أعضائها ٣٠٠ تجتمع ثلاثة أيام في كل مرة، هب أنها اجتمعت في كل يوم لمدة عشر ساعات. حصيلة ذلك أن نصيب العضو في الأيام الثلاثة كلها ست دقائق، أي أربع وعشرون دقيقة في العام، وهذا على افتراض أن الوقت كله يعطى للأعضاء، أما إذا حذفت منه الوقت الذي يضيع في الإجراءات، والوقت الذي تستغرقه قراءة التقارير التي تعدها القيادة ويستغرقه شرحها والدفاع عنها، فلا يبقى لكل عضو في المجلس إلا ثلث ساعة في العام على أكثر تقدير. فأي شورى حقيقية يمكن أن تتحقق في مثل هذه الظروف؟

انتقد أحد الإخوان تعليقي هذا قائلاً بأن الوقت لا يقسم في الاجتماعات بهذا التساوي. فقلت: إنني أعرف هذا وإنما كان غرضي بيان نسبة الوقت إلى عدد المجتمعين. لأن هذه النسبة هي التي تظهر أنَّ الوقت ليس كافياً، فإنك إذا قسمته بالتساوي كانت النتيجة ما ذكرت، وإذا لم تقسمه بالتساوي كانت الزيادة في فرص البعض على حساب آخرين، بل إن الذي يحدث أن يظل كثير من هؤلاء المجتمعين صامتين العام كله، ولا هَمَّ لهم إلا أن يصوتوا في النهاية على الرأي الذي تراه القيادة. فأنى يكون أمثال هؤلاء مستشارين مؤتمنين؟

المادة ٤٤: القيادة التنفيذية: تتكون القيادة التنفيذية من المكتب السياسي ومكتب الدعوة والمكتب الإداري ويرأسها الأمين العام وتعمل هذه المكاتب مستقلة.

تعليق: معنى ذلك أن أعضاء المكتب السياسي لا دخل لهم بالإدارة والمال وأعضاء مكتب الدعوة لا شأن لهم بالسياسة والإدارة... الخ . والذي له شأن بهذا كله في التنظيم كله هو شخص واحد هو الأمين العام.

المادة ٤٥: يتكون المكتب السياسي من الأمين العام ومالا يزيد عن ثلاثين عضواً.

المادة ٤٦: يتكون مكتب الدعوة من الأمين العام ومالا يزيد عن عشرين عضواً.

المادة ٤٧: يتكون المكتب الإداري من الأمين العام ومالا يزيد عن عشرين عضواً.

المادة ٤٨: الأمين العام: يقوم الأمين العام على رأس القيادة التنفيذية ويكون الممثل والناطق الرسمي باسم الجبهة وله أن يشكل مكتباً لمعاونته في أداء مهامه.

تعليق: حاصل هذا أن الأمين العام هو وحده القيادة التنفيذية، والمكتب التنفيذي الذي يكونه هو في واقع الأمر أهم من كل تلك الهيئات المنتخبة، فهذا المكتب الفني هو الذي سيساعد الأمين العام في

الإتيان بأكبر عدد ممكن من أعضاء المؤتمر وهيئة الشورى والمكاتب الثلاثة.

إذا انتقدت مثل هذا التكريس للسلطة أجابك بعض إخواننا بأنه نظام رئاسي، وأن النظام الإسلامي أقرب إلى النظام الرئاسي منه إلى النظام البرلماني.

وأقول: إن هذا ليس بنظام إسلامي، وما هو والله من النظام الرئاسي ولا البرلماني في شيء، وإنما هو نظام دكتاتوري اختاره الناس طائعين أو مستغفلين.

في النظامين الرئاسي والبرلماني مجالس نيابية تظل مجتمعة طوال العام تقريباً، وتُعطي الوقت الكافي لمناقشة ما يعرض عليها، وتوضع المعلومات اللازمة بين يدي كل عضو فيها، وهو جهاز مستقل مالياً وإدارياً، وفي النظامين صحافة حرة تراقب، يعبر فيها الناس عن آرائهم ويوفر بعضهم المعلومات فيها لبعضهم.

وفي النظام الرئاسي محكمة عليا مستقلة عن الجهازين التشريعي والتنفيذي، وأما في أجهزتنا التي أطلق عليها اسم الشورى زوراً فليست لها ميزانية مستقلة ولا مصادر معلومات مستقلة، بل إن القيادة التنفيذية هي التي تنفق عليها، وتحدد أماكن اجتماعها، والمدة التي تستغرقها الاجتماعات والموضوعات التي تناقش فيها. الحق يقال أن المجالس النيابية في البلاد الديمقراطية أقرب مائة مرة إلى مفهوم الشورى من هذه المجالس المسخ التي تنسب إلى الشورى.

قد أدى تكريس السلطة في يد الفرد في بعض الأحزاب العلمانية في البلاد العربية إلى أنه لم يكتف القائد بتحويل المؤسسات إلى هياكل لا روح فيها، بل استغل سلطته وطاعة الناس له وإمكانات الجماعة المالية والإدارية، ليؤسس في داخل الحزب عصابة مؤمنة بشخصه، منفذة لأمره. فصارت هذه العصابة السرية هي الحزب الحقيقي، وعاد الحزب اسماً مجرداً، وهيكلاً فارغاً، لا حول له ولا قوة. ويغلب على ظني أن شيئاً من هذا قد حدث في بعض الحركات الإسلامية، فمؤسساتها المعلنة لا تستشار ولا تقضي في أمر ذي بال، ورموزها المشهورون بين الناس لا يقدمون في الجماعة ولا يؤخرون، بل قد يكونون من آخر من يعلمون.

من الأسباب التي أدت إلى أمثال هذه الانحرافات العظيمة ظن كثير من الإسلاميين بأن النظام الإسلامي يقوم على الثقة وحدها، فعظموا أمر الثقة حتى جعلوها منافية للمحاسبة والمراقبة، بديلة عن المؤسسات. ولا شك في أهمية اختيار الشخص الموثوق به وفي معاملته بهذه الثقة، لكن الثقة به شيء ومعاملته معاملة المعصوم شيء آخر.

٤- الطاعة الشركية

قلنا إن الناس إذا أرادوا أن يعملوا في جماعة فلا بد لهم من إمـــارة ولا بد لهم من طاعة لتلك الإمارة.

لكن الطاعة نوعان: طاعة لله تعالى ترفع من قدر الفرد، وتزيد مـــــن كرامته، وتسعده في حياته وآخرته. وطاعة لغير الله تذل الإنسان وتـــدوس على كرامته وتشقيه في دنياه وآخرته. والله تعالى يعلم أن في بعض النـــاس شهوة للتعالي على غيرهم واستعبادهم وإذلالهـــم وتســخيرهم لخدمـــة أهوائهم، ويعلم أن في كثير من الناس استعداد لقبول هذا الإذلال.

﴿ تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علـــواً في الأرض ولا فساداً﴾ (القصص: ٨٣)

﴿ قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده مالـــه وولـــده إلا خساراً﴾ (نوح: ٢١)

﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم مـــــن إلـــه غـــيري ﴾ (القصص: ٣٨)

﴿ قال فرعون ما أُريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشـــاد ﴾ (غافر: ٢٩)

﴿وقالوا ربنا إنَّا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا﴾ (الأحزاب: ٦٧)

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ (آل عمران: ٦٤)

ولذلك فإن الله تعالى فصَّل لنا في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم نوع الطاعة التوحيدية المحمودة وأمرنا بالتزامها، كما بين لنا نوع الطاعة الشركية المذمومة وحذّرنا مغبَّتَها. فالطاعة في أصلها عبادة لا يُتوجه بها إلا إلى الله تعالى، والرسول صلى الله عليه وسلم إنما يُطاع لأنه مبلغ عن الله معصوم في تبليغه. ومن أمرنا بطاعته بعد ذلك من الرؤساء والعلماء والأمراء إنما يطاعون في نطاق طاعتهم هم لله.

﴿ يا أيها اللذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ (النساء: ٥٩)

لاحظ العلماء أن الآية كررت الطاعة بالنسبة للرسول لتدل على أن طاعته أصلية. بمعنى أنه إذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أمراً فعلى المؤمن أن ينفذه من غير أن يبحث في القرآن عن دليل يؤيده، لأنه معصوم لا يفتري على الله ولا يخطئ في تبليغه عن الله. وأما أولو الأمر بعد الرسول فطاعتهم ليست أصلية، وإنما هي فرع عن طاعتهم لله ولذلك لم

يكرر لفظ الطاعة بالنسبة لهم. ثم إنه تعالى لم يأمرنا في حالة الخلاف أن نرجع إلى أولي الأمر، وإنما أمرنا بالرجوع إلى الله والرسول، لأن التراع قد يكون بيننا وبين أولي الأمر أنفسهم بل بهذا فسر بعض العلماء التراع الوارد في الآية، فكيف يكون ولي الأمر هو الخصم والحكم؟ لكن بعض من يحرفون دين الله بدعوى التجديد زعموا أن تشريعات الحكام أصل يرجع إليه، وعدوا هذا من استدراكاتهم على علماء الأصول، لكن علماء الأصول كانوا أعلم وأفقه، لأن تصرفات ولي الأمر ليست أصلاً للأحكام الشرعية وإنما هي محكومة ومقومة بها. وإذا كان المرجعِ عند التنازع هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالحكم في هذا هم العلماء لا الحكام. ولذلك قال البخاري رضي الله عنه "باب: إذا قضى الحاكم بجور أو خلاف أهل العلم فهو رد" واستدل على ذلك بالحديث التالي:

عن سالم عن أبيه قال: بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا صبأنا صبأنا. فجعل خالد يقتل ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره. فأمر كل رجل منا أن يقتل أسيره. فقلت والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد" مرتين. (صحيح البخاري، كتاب الأحكام)

لو أن المسلمين أخذوا بهذا الرأي الذي يجعل تصرفات الحكام أصلاً من أصول الفقه، لتحولت الدولة الإسلامية إلى شر أنواع الدول الديكتاتورية، لأنها سترد الناس حينئذ إلى ما كان يعرف في الغرب بالحق

الإلهي للملوك. وهو أن يدعي الحاكم أن كل ما يقضي به إنما هو مما خوله الله الحكم به، فما ينبغي لأحد أن يعترض عليه، لكن القرآن الكريم أوضح لنا بجلاء أن الحكم إنما هو لله، و أنه لا حق لبشر غير مرسل - كائناً من كان- أن يكون حكمه أصلاً في دين الله. قال تعالى: ﴿ **إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ (يوسف: ٤٠)

وقال تعالى: ﴿ **يا أيها اللذين أمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** ﴾ (الحجرات: ١)

وقال تعالى عن اليهود والنصارى: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾ (التوبة: ٣١)

وفسَّر الرسول صلى الله عليه وسلم اتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً بأنه طاعتهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله.

عن يحيى بن حصين قال سمعت جدتي تحدث أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع، وهو يقول: "ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله، فاسمعوا وأطيعوا". (صحيح مسلم، كتاب الإمارة)

عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية فإن أُمِرَ بمعصية، فلا سمع ولا طاعة" (رواه البخاري ومسلم)

عن علي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث جيشاً، وأمَّر عليهم رجلاً، فأوقد ناراً وقال ادخلوا فأراد ناس أن يدخلوا وقال آخرين إنَّا قد فررنا منها، فذُكِرَ ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال للذين أرادوا أن يدخلوا لو دخلتموها لم تزالوا فيها إلى يوم القيامة، وقال للآخرين قولاً حسناً وقال لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف". (صحيح مسلم، كتاب الإمارة)

عن علي قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية، واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا له، ثم قال: أوقدوا ناراً، فأوقدوا. ثم قال: ألم يأمركم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا؟ قالوا: بلى. قال: فادخلوها، قال: فنظر بعضهم إلى بعض، فقالوا: إنما فررنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من النار. فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: "لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف". (صحيح مسلم، كتاب الإمارة)

لئلا تتحول الطاعة في الإسلام إلى عبودية للبشر، أُمِرنا بأن لا نطيع إلا في معروف، وأن نطيع الآمر ما أطاع الله، وأن لا نكون دائماً في موضع المتلقي للأوامر بل أن نأمر من فوقنا كما يأمرنا.

قال صلى الله عليه وسلم: "الدين النصيحة" قلنا: لمن؟ قال: "لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم" (رواه مسلم)

فالنصح لله هو إخلاص الدين له، والنصح للرسول اتباعه، والنصح للكتاب الاستمساك به، والنصح لأئمة المسلمين وعامتهم بيان الحق لهم وأمرهم به.

ولذلك جعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السمات المميزة للمؤمنين.

﴿ ليسوا سواءاً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ۞ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين﴾ (آل عمران: ١١٣-١١٤)

وأمرنا أن نحافظ على عباداتنا سيما الصلاة حتى تكون صلتنا دائماً بالله، وولاؤنا أولاً له لا للزعماء والشيوخ والحكام والتنظيمات. وأمرنا بطلب العلم لأن كل ذلك الذي أمرنا به لا يأتي إلا بالعلم الشرعي.

"من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين" (صحيح البخاري)

ولذلك كان خير القرون القرن الذين صاحبوا الرسول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم.

فكلما كان الفقه في الدين أكثر شيوعاً في المجتمع والجماعة كانوا إلى الخير أقرب، وكانت طاعتهم لرؤسائهم طاعة توحيد لله لا طاعة خضوع وتبعية جاهلية.

لكن بعض التنظيمات الإسلامية أهملت العلم فلم تحث الشباب عليه ولم تدعهم إليه. وأهملت تربيتهم على المحافظة على العبادات وإقام

الصلوات، والتخلق بأخلاق الصدق والأمانة، وحب المؤمنين والنصح لهم، ثم غلت في ترويضهم على الطاعة، وصورت الطاعة لهم بأنها الإذعان للأوامر التنظيمية فكانت النتيجة أن تحول كثير من هؤلاء المساكين إلى مجرد أدوات يحقق بها التنظيم أهدافه الدنيوية.

وكانت النتيجة أيضاً أن تجد في بعض التنظيمات دعوة للجرأة في نقد الصحابة، والتقليل من شأن العلماء، بل أيضاً عدم الإذعان لبعض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم، مع الإجلال الشديد لقرارات التنظيم، وأقوال الزعيم، والتشنج في الرد على كل من ينتقدها أو يُشكك في صوابها.

وتلك سنة الله تعالى فلا تُطِلُّ بدعة إلا لتختفي سنة، ولا تذهب فضيلة إلا لتحل محلها رذيلة.

٥- العصبية الجاهلية

يبدو أن من طبائع الناس أنهم إذا اجتمعوا في جماعة تميزهم عن غيرهم، أياً كان نوع هذا التمييز -لوناً أو عنصراً أو مهنة أو ديناً أو سياسة أو رياضة- فإنهم يميلون إلى أن ينصر بعضهم بعضاً ويتعصب بعضهم لبعض، وإلى أن يفخروا على غيرهم، وأن يبخسوهم حقوقهم.

وكلما كانت الرابطة التي تجمعهم وتميزهم أقوى من العلاقات الأخرى التي تربطهم بغيرهم وأكثر شمولاً، كان هذا التعصب أشد وأشمل، وكان ظلمهم لغيرهم أكثر.

فالمنتمون إلى الجماعة المتسمة بهذه العصبية يفتخرون بكل ما عندهم من زعماء وأسماء ومؤسسات ومواقف وأعمال، ويدافعون عنها ويخفون أخطاءها، وينشرون أخطاء غيرهم، وربما يظلمونهم فيتهمونهم بما ليس فيهم، وهذه ظاهرة بشرية عامة في تجمعات البشر على مدى التاريخ إلا من رحم ربك.

والله تعالى يريد للمسلمين أن يتجمعوا وأن يتوالوا وأن يتعاونوا، لكنه يريد لهذا التجمع والموالاة والمعاونة أن تكون وسائل لنصرة الحق وإقامة العدل، ولذلك يعد كل موالاة ومناصرة ومعاونة على حساب الحق والعدل عصبية جاهلية.

إن الله تعالى يدعونا إلى نصرة الحق وإلى إقامة العدل ولو كان حقاً لكافر، ولو كان حقاً على مسلم، ولو كان المسلم أقرب الناس إلينا رحماً، ولو كان الكافر أكثر الناس إلينا بغضاً:

﴿ يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (المائدة: ٨)

﴿ يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ (النساء: ١٣٥)

وهو يدعونا إلى أن يكون ديدننا الاجتماع والتعاون لدعم الفضيلة وبث الخير ودعمه، ويحذرنا من الانزلاق في تسخير ذلك التعاون للوقوف بجانب الباطل، فذلك شأن الكافرين لا شأن المؤمنين.

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ﴾ (المائدة: ٢)

﴿ ولا تكونوا كاللذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس ﴾ (الأنفال:٤٧)

﴿ إذ جعل اللذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها ﴾ (الفتح: ٢٦)

وقد كان القرآن الكريم يربي المؤمنين على هذه المعاني تربية عملية تشق على بعضهم أحياناً، كلما رأى الله تعالى منهم حياداً عنها وميلاً إلى العصبية الجاهلية، التي تقدم الانتماء إلى الجماعة على الانتماء إلى الحق، والتعصب لها على حساب الاستمساك به، ذكَّرَهم وحذَّرَهم وزجرهم وكشف على رؤوس الأشهاد الباطل الذي ارتكبوه، وبين الحق الذي كان عليهم أن يتبعوه.

من ذلك أن رجلاً من بني أبيرق -يقال أنه كان منافقاً- سرق درعاً من أحد المسلمين فلما خشي أن يفتضح أمره، ويلحق العارُ بسَبَبِه قومَه، عمد إلى الدرع فرماه في بيت رجل بريء -يقال إنه كان يهودياً- ثم ذهب إلى قومه فصارحهم بما فعل، ورجاهم أن يشهدوا ببراءته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففعلوا، وأعلن الرسول صلى الله عليه وسلم براءة صاحبهم استنادا إلى شهادتهم، لكن الله تعالى كان يعلم أن الحق في غير ما شهدوا به، فأنزل عدداً من الآيات لبيان الحق في هذه القضية، فقال سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿ إنَّا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ۞ واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً ۞ ولا تجادل عن اللذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوَّاناً أثيماً ۞ يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً ۞ ها أنتم

هؤلاء جادلتم عنهم في الحياة الدنيا فمن يجادل الله عنهم يوم القيامة أمن يكون عليهم وكيلاً ﴾ (النساء:١٠٥-١٠٩)

أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن لا يكون مدافعاً عن المجرمين ولو كانوا إلى الإسلام منتسبين.

﴿ ولا تكن للخائنين خصيماً ﴾ (النساء: ١٠٥)

وأن لا يجادل عنهم وهم يفعلون شيئاً لا يحبه الله تعالى. ثمّ بين الطريق السوي الذي ينبغي على من وقع في جُرمٍ أن يسلكه. إن الخروج من الذنب لا يكون بارتكاب ذنب آخر، والبراءة من ظلم إنسان لا تكون بظلم آخر ولو كان كافراً؛ وإنما تكون بالتوبة إلى الله تعالى، ورد الحقوق إلى أهلها.

﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ۞ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليماً حكيماً ۞ ومن يكسب خطيئة أو إثماً ثم يرم به بريئاً فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (النساء:١١٠-١١٢)

ثم بيَّن لرسوله صلى الله عليه وسلم أن ما طلبه منه قوم الرجل السارق من تبرئته ضلالٌ ما ينبغي لنبي أن يقع فيه، ولذلك كان من فضل الله تعالى عليه ورحمته به أن أنقذه منه، لأن الله تعالى إنما أنزل عليه الكتاب وعلمه الحق ليحق الحق ويبطل الباطل، وهذا فضل من الله تعالى عظيم.

﴿ ولولا فضل الله عليكم ورحمته لهمت طائفة منهم أن يُضلوك وما يُضِلُّون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً﴾ (النساء: ١١٣)

وقد وعى المسلمون أمثال هذه الدروس، لذلك عجبوا عندما قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة:

"انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً"

فسألوه مستغربين :

"يا رسول الله: هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟"

سألوه هذا السؤال لأنهم يعلمون أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يأمرهم بمساندة الظالم ولو كان أخاً لهم، فأجابهم صلى الله عليه وسلم قائلاً:

"تأخذ فوق يديه" (صحيح البخاري، كتاب المظالم)

تأخذ فوق يديه، تمنعه من أن يظلم، أو أن يستمر في الظلم، هذا هو المفهوم الإسلامي لوقوف الأخ بجانب أخيه المؤمن. إنه لا يجاريه في باطله، ولا يحثه عليه، ولا يزينه له، ولا يعينه عليه، بل يحول بين أخيه وبينه، لأن الظلم وإن أتى بكسب مؤقت، فهو في النهاية خسارة ودمار.

هذه المعاني تحتاج إلى أن يُربى الناس عليها، وأن يُؤدَّبوا بها، وأن يُحاسبوا إذا هم حادوا عنها.

وكلما قَلَّ العِلم بها والتربية عليها والتأدب بها، دَبَّ إلى الجماعة بقدر إهمالها دبيب العصبية الجاهلية، ولو كانت جماعةً إسلاميةً يُصلي أفرادها ويصومون.

والعصبية الجاهلية تُغري بالانحراف وتساعد عليه، لأن المنتمي إلى جماعة متعصبة يشعر أنه يعيش في مأمن حين يرتكب بعض المخالفات الشرعية مادام عضواً نشيطاً في جماعته.

وقد رأيت أناساً كثيرين في هذه الجماعات زين لهم الشيطان أن يستغنوا بشرف الانتماء إلى مثل هذه الجماعات عن طلب العلم والاجتهاد في العبادة، وأن يعتقدوا مع ذلك أن كل من ليس من جماعتهم فهو دونهم مهما كان علمه وتقواه وجهاده.

والعصبية التنظيمية كلما ازدادت قوتها أحلَّت الولاء للتنظيم رويداً رويداً محل الولاء للدين فيُضحي بكثيرٍ من مبادئ الدين وقيمه في سبيل الانتصار للتنظيم.

رأيت كثيراً من الناس بلغ بهم العمى التنظيمي أن يتسامحوا مع زعمائهم إذا هم أنكروا بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلَّم، أو طعنوا في بعض أصحابه أو أفتوا فتاوى منكرة، أو تكلموا بكلام قبيح. لكنهم يضيقون صدراً ويستشيطون غضباً إذا أنت انتقدت بعض ما قال ذلك الزعيم.

وحين يغلوا الناس في ولائهم لتنظيماتهم وزعمائهم وشيوخهم يفقدون القدرة حتى على رؤية الباطل باطلاً ودعك عن إنكاره. قيل عن

بعض المريدين أنهم يرون شيوخهم يحتسون الخمر لكنهم لا يصدقون أعينهم، وإن صدقوها اعتقدوا أنها تتحول في فم الشيخ إلى ماءٍ عذبٍ أو حليب.

سمعت أن بعض الشيوخ السودانيين المعاصرين المتبوعين معروفون بعدم شهودهم للجمع والجماعات، ومع ذلك يتولاهم الناس ويثقون بهم ويرجون على أيديهم البركات. حكى لي أخ فاضل في هذا الأسبوع وبمناسبة هذه المحاضرة أنه كان في تنظيم إسلامي، وأن رئيس ذلك التنظيم أرسلهم ذات مرة إلى بعض القرى وقال لهم: إن هؤلاء الناس معروفون بالعبادة فإذا أتيتموهم فمَثِّلوا لهم أنكم تحسنون الصلاة! وأن هذا الرئيس قال له ذات مرة: إن أولئك القوم مصابون بشيء من الإحباط أو كلاماً هذا فحواه -فإذا أتيتهم فمَثِّل لهم أنك شيخ يعلم الغيب! قال الأخ أنه لم ينفذ ما نصحه به رئيسه لكنه يستغرب الآن كيف أنه لم يرَ فظاعة ذلك الكلام إلا بعد أن خرج من ذلك التنظيم!

أيها الإخوة الأعزاء:

إن علاج هذه الانحرافات ليس في ترك الجماعات، أو إنكار العمل الجماعي المنظم، فإن الناس إذا اجتمعوا وتنظموا وكانوا يداً واحدة أمكنهم أن يحققوا من الخير ما لا يستطيع تحقيقه الأفراد مشتتون.

إن الحل لمشكلة هذه التنظيمات بل لكل المؤسسات التي ورثناها من الغرب من الحكومة إلى قوات الأمن إلى المؤسسات التعليمية وغيرها، إن حل مشكلتها هو في إعادة تشييدها على أسس من القيم الإسلامية، وهذا عمل شاق يحتاج إلى جهد علمي وإلى ثقة بالنفس وعزيمة قوية على الإصلاح المبدع.

ولا يمكن أن يحدث شيء من هذا إلا بأن يهتم عدد كبير مِنَّا بدراسة كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. إن في بلادنا الآن ظاهرة مُبَشِّرة بخير هي إقبال الناس على حفظ القرآن وتجويده وتلاوته. وهذا أمر مهم ما في ذلك شك، لكن الأهم منه هو فهم هذا الكتاب العظيم وتدبره والاستمساك به وكذلك الحال بالنسبة لأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم، لا بد أن يُعنى بها عدد كبير مِنَّا دراسة وتأملاً.

ولا بُدَّ لنا من الرجوع في فهم الكتاب والسنة إلى أقوال العلماء الرَّبانيين الذين هم من فضل الله العظيم على هذه الأمَّة.

يا شباب الصحوة الإسلامية

إن تكوين الجماعات والانتماء إليها -حين تدعوا الحاجة إليه- واجب ما ينبغي لأحد أن يشكك فيه أو يُخَذِّل عنه. وإن السعي لتسلُّم السلطة -حين تدعوا الحاجة إليه- واجب ينبغي أن نشارك فيه ونشجع عليه. لكن لنتذكر أن الجماعات يمكن أن يُكَوِّنها أفجر خلق الله من الشيوعيين والصهاينة والماسونيين، وأن السُّلطة يتسلمها ويتمكن فيها أظلم الناس وأبعدهم عن شرع الله. فالعبرة إذاً ليست في أن تكون لنا جماعة، ولا أن نكون حكاماً. وإنما العبرة كل العبرة أن تكون جماعتنا وسيلةً لدعوة الناس إلى الحق وتعليمهم الخير، وأن تكون دولتنا وسيلة لإعلاء كلمة الله وإقامة العدل الذي أمر به الله. فالمحبوبون عند الله هم:

﴿ اللذين إن مكنّاهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ﴾ (الحج: ٤١)

هذا هو المنتظر من كل مؤمن يمن عليه ربنا بنعمة الخلافة في الأرض.

﴿ قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يُهلك عدوكم ويستخلفكم في الأرض فينظر كيف تعملون ﴾ (الأعراف: ١٢٩)

﴿ يا داود إنَّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيُضِلَّك عن سبيل الله إن اللذين يَضِلُّون عن سبيل الله هم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ (ص: ٢٦)

وفقني الله وإياكم إلى ما يحبه ويرضاه، ونسأله تعالى أن يُرِينا الحق حقاً ويَرزُقَنا اتِّباعه، ويُرِينا الباطل باطلاً ويرزقنا اجتنابه.

﴿ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ (هود: ٨٨)

واستغفر الله العظيم لي ولكم، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

تمَّ بحمد الله



عن هذا الكتاب

هذه ثلاثة مقالات مهمة للمفكر الإسلامي المعروف الشيخ جعفر إدريس ننشرها في أول كتاب ضمن مشروع لجمع كتبه وأبحاثه بالعربية والإنجليزية، وهي دراسات إصلاحية ناصحة يحتاجها كل من يهمه شأن الأمة المسلمة وأسس نهوضها.

هذه المقالات يجمعها موضوع واحد هو نقد المنهجية في فكر وتطبيق الإسلاميين المعاصرين. تناول الشيخ في أولاها عدة انحرافات في منهج العمل الإسلامي المعاصر. ثم ناقش في الثانية بعض أفكار الأستاذ سيد قطب بإنصاف يعز وجوده، فلم يَلغِ الحبَّ الحقَّ. وفي الثالثة تعرض للتنظيمات الإسلامية دارسًا لأحد دساتيرها.

والدكتور جعفر من رواد الدعوة الإسلامية الذين تميزوا بالثقافة الواسعة من منابعها الإسلامية الأصلية مع إطلاع واسع على تيارات الثقافة الغربية. وهو أستاذ العقيدة الإسلامية والفلسفة المعاصرة في عدد من الجامعات في العالم العربي والغربي.

تتميز مقالاته بالمنهجية والوضوح، فهو ينقد ويؤسس لمنهج فكري وعملي أصيل من كتاب الله ومن سنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - بعيدًا عن التعصب والحزبيات التي أضعفت قوة العمل الإسلامي وأثرت على منهجه.

$8.00



ISBN 1-888782-04-8



